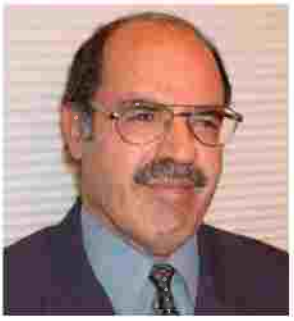

الدكتور عادل سمارة

ألّفت 30 كتاباً وحصلت على الدكتوراه ولم أفز بوظيفة في جامعاتنا العشرة
عرض عليّ عرفات 25 ألف جنيه إسترليني لإتمام دراستي.. فرفضت
وعرض عليّ القذافي ثمانية ملايين دولار لإنشاء مركز دراسات.. فاعتذرت
قبل يومين من اغتياله قال لي ناجي العلي: إذا لم أمدح عرفات فإني سأقتل

عندما أتأمل شريط حياة الصديق عادل سمارة، أزداد يقينا بأن في فلسطين نبع من العبقريات الإنسانية والنضالية والفكرية.

شاب ذكي، رياضي متفوق، وطالب نابغة.. ابن فلاح من قرية بيت عور الفوقا فيه كل ملامح الإنسان الطيب.. وكل أخلاق الزعيم المناضل الأنموذج.. الذي يحق لأرض فلسطين أن تزهو بأنه نبت في تربتها وترعرع حول سهولها وهضابها، ورضع لبنها.. وتعلم وأبدع ونبغ في معاهدها.. وبرفقة مفكريها وثوارها.

عادل.. يا لك من إنسان نبيل طيب، ودود، خلوق، متواضع.. أنفقت اكثر من نصف عمرك في المعتقلات الأردنية والإسرائيلية والسلطوية.. فلم تزُود ولم تفتعل، ولم تركب موجة ولم تسعَ إلى منصب أو وزارة.. بقيت أخلاق الفلاح الثائر النظيف عنوان سلوكك.. تحب الجميع.. وتخدم الجميع.. وتعمل من أجل الجميع وربما تختلف مع الجميع.

كل من جلس إليك.. واستمع إلى فكرك ورؤاك أدرك أنه أمام عقلية ناضجة ومفكر حر.. وإنسان مرهف الشعور والإحساس.. عميق الثقافة والرؤية.. صادق الحس والحدس والبصيرة.

من أجل ريموندا

في أحد المعتقلات اجتمع الشباب.. ودارت الأحاديث وذهبت كل مذهب.. وحاول أحدهم أن يلقي اتهامات ظالمة حول مواقفي وأفكاري وتوجهاتي السياسية.. وكنت أيامها في ذروة عملي الإعلامي في المكتب الفلسطيني واشتد الحوار بين عادل سمارة وبين ذلك المعتقل، وتطور النقاش إلى مشادة وضرب وخناقة كبيرة. ومن يعرف طبيعة عادل وحقيقته يعرف أنه قد يمسك بالرشاش ليقاتل عدواً، لكنه مع من يناقشهم ويحاورهم

يؤمن بالمبدأ العقلاني السمح: "وجادلهم بالتي هي أحسن"، ويؤمن بمقولة: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما".. ولكنه قاتل وبشراسة عندما رأى من ينال الرموز الوطنية بالافتراء والزور.

عادل وناجي ضد درويش

في عام 1985 كنا في لندن، وكان ناجي العلي مطرودا من الكويت، وأجرى صحافي إسرائيلي وهو حاييم هنجبي مراسل صحيفة "يديعوت أحرونوت" مقابلة مع الشاعر محمود درويش، قال فيها: إن الفلسطينيين مستعدون للاعتراف بإسرائيل، وترجمت هذه المقابلة، ونشرت في مجلة "المجلة" السعودية، التي كان رئيس تحريرها صالح القلاب الذي أصبح فيما بعد وزيرا للإعلام الأردني وكان زميلا بعثيا في السجن عام 1965 حيث كنت عضوا في حركة القوميين العرب.

وكنت يومها أعمل في جريدة "العرب"، وكتبت ردا على محمود درويش، ويومها قال ناجي العلي عبارته المشهورة: "محمود خيبتنا الأخيرة" على وزن عبارة درويش الشهيرة: "بيروت خيمتنا الأخيرة". المهم.. إن ناجي العلي اتصل بي.. وقال لي بالحرف الواحد: "أخيرا وجدت واحدا يحمل معي كتفا".

وكانت معركة واسعة بين من أيدوا محمود درويش وبين من عارضوه، وكنا أنا وناجي العلي أبرز من المعارضين.

قهوة مرة في مطبخ ناجي العلي

أطلقت النار على ناجي العلي في لندن يوم 1987/7/22.

يوم الاثنين 1987/7/20 استيقظت مبكرا وذهبت إلى بيت ناجي العلي لأحضر ابني الذي كان نائما عندهم. يومها.. شربنا قهوة مرة في مطبخ البيت وقال لي ناجي العلي:

- إذا لم أمدح أبو عمار، فإني سأُغتال.. لقد هددوني بشكل واضح.

كان ذلك صباح يوم الاثنين.

يوم الأربعاء الساعة الخامسة مساء.. اتصلت بي ابنته ليالٍ.. قالت لي:

- "لقد أطلقوا الرصاص على أبي".

ويعلق عادل سمارة على هذه الأحداث: أنا لا أشير باصابع الاتهام إلى أحد.. كان لناجي أعداء كثيرون.. وكانت رسوماته حادة، جارحة، صريحة.. وكان لا يهادن أحدا، وربما استغل أعداؤه الظروف.. واغتالوه.. ليذهب دمه بين القبائل.. فلا تُعرف الجهة التي اغتالته.. وكان في قائمة من هاجمهم بقسوة.. حافظ الأسد، وياسر عرفات، وكل رموز السلطة في الوطن العربي.

25 ألف جنيه إسترليني فقط

كان أبو عمار في تونس.. في عام 1985.. عرضت عليّ ريموندا طويل عرضا غريبا غير متوقع.. قالت لي:

- إن عرفات مستعد أن يقدم لي 25 ألف جنيه إسترليني.. لتواصل دراستك في لندن وتحصل على الدكتوراه.

ولكنني قلت لها:

- آسف.. أنا أعمل.. وأحضر للدكتوراه.. فوضعي أحسن من كثيرين من أبناء شعبنا.. قولي للرئيس شكرا.

وقد استغربت ريموندا هذا الرفض، لأن أحدا لا يرفض يد عرفات، ولا أحد يزود عليه، ولأنها كانت تعرف أني أعمل في لندن في أعمال كثيرة.. متعبة.. فقد اشتغلت.. لتمويل دراستي ألف مهنة ومهنة؛ عملت سائقا على سيارة غير مرخصة، كما عملت في أعمال البناء.. ومن ثم التحقت بجريدة "العرب" التي كان يصدرها أحمد الهوني.. محررا اقتصاديا.

و.. ثمانية ملايين دولار من العقيد

انتظمت مقالاتي في صحيفة "العرب" التي كانت تصدر في لندن.. وذات يوم جاء من يطلب مني مقابلة بعض الأخوة الليبيين.. قال لي الرسول:

- الليبيون يريدون أن يحكوا معك.

قلت لهم:

- ماذا تريدون؟

قالوا:

- نحن نعرض عليك ثمانية ملايين دولار لإنشاء مركز أبحاث تنموي في الضفة الغربية.

كان ذلك عام 1985.

فقلت لهم:

- المنظمات الفلسطينية هي العنوان وهي تقوم بهذه المهمة.

قالوا لي:

- إذا أخذت المنظمة الفلوس فإنها ستضيع.

قلت لهم:

- لست العنوان لمثل هذا العرض، ولكني مستعد أن أقدم لكم بحثا عن الضرورات الاقتصادية في الأراضي المحتلة.. وكتبت البحث وسلمته لهم مجانا.

بيان العشرين .. أدخلني سجن السلطة

عندما عادت المنظمة إلى الوطن.. وتولت السلطة.. وبعيد عام 1996.. اجتمعت عشرون شخصية سياسية وفكرية وقيادية من أشهرهم:

عبد الستار قاسم

أحمد قطامش

عبد الجواد صالح

عصمت الشخشير

عبد الرحيم كتانة

فخري التركمان

عادل سمارة

وصدر عن هذه الشخصيات بيان صريح يتهم الرئيس عرفات بالفساد.. وذكروا الرئيس بالاسم.. بصراحة ودون مواربة.

وعلى أثر هذا البيان تم اعتقال كل من وقع على هذا البيان باستثناء من كانوا أعضاء في المجلس التشريعي، حيث كانوا يتمتعون بالحصانة.

وتم اقتيادنا إلى سجن المخابرات في أريحا.. أنا، وعبد الستار قاسم، وأحمد قطامش، والباقون.. وُضعوا في سجن نابلس.

ولدى مقابلتي توفيق الطيراوي للتحقيق.. كان الرجل مؤدبا وقال لي:

- لقد قويتم سوريا علينا.. وهددتم أمن الدولة، وعليكم نشر اعتذار..

قلت له:

- إن معركتنا.. مع إسرائيل.. وليس مع دمشق؟

وفتحت النار على الجبهة الديمقراطية

ومعارك عادل سمارة.. كثيرة.

إنها معارك مستمرة.. لا تكاد تتوقف..

إنه بطبيعته.. شخصية جدلية ثائرة.. مفكر.. يضع عصارة فكره.. في كل ما هو تقليدي وزائف ليكشف عن جوهره وهذه سمة من سمات القادة والرواد.. الذين يتصدون بجرأة.. للنقد الصريح الشجاع الجريء.. دون مبالاة بالنتائج.. من ملفات معارك عادل سمارة الجريئة.. بدأ حياته عضوا في حركة القوميين العرب سنة 1963 ومن ثم الجبهة الشعبية وغادرها لخلاف على الماركسية، وبعد خروجه من سجن الاحتلال انتسب إلى الجبهة الديمقراطية معتقدا أنها منظمة ماركسية، لفترة قصيرة عام 1975 ثم تركها بعد أن كتب لهم نقدا يمكن تلخيصه في ثلاثة معطيات خطيرة وهي:

- الاتحاد السوفييتي ليس دولة اشتراكية.
- الجبهة الديمقراطية تنظيم برجوازي صغير.
- منظمة التحرير لا تستطيع تحرير فلسطين بدون العمق العربي.

وكان طرح هذه الأفكار.. في تلك الفترة من عام 1976 يسبب صدمة شديدة للرأي العام.. كان مثيرا.. ومفاجئا، ويدعو للدهشة والاستنكار فالاتحاد السوفييتي في تلك الفترة هو الحليف الرائد للفكر الماركسي اليساري.. والجبهة الديمقراطية.. تقوم فلسفتها على محاربة البرجوازية وتبني النهج الماركسي اليساري.. كما أن منظمة التحرير كانت تحاول أن تتبنى مواقفها النضالية بروح قتالية جادة.. قوامها الحرص على استقلالية القرار الفلسطيني.

وفي رأي عادل سمارة دائما.. هناك مساحة للرأي والرأي الآخر.

من بيت عور الفوقا كان المنطلق

ولد عادل إبراهيم محمد سمارة يوم 1944/1/29 في قرية بيت عور الفوقا بمحافظة رام الله، وكان والده مزارعا. فلاح نشيط ومالك لأراض جاوزت مائة وعشرين دونما، وكان يزرعها زيتونا وبرقوقا وعنبا. أما

والدته فكانت فلاحة.. تقف إلى جانب زوجها لتجسد المساواة ببساطة وعفوية وتحقق الندية التي دعا إليها ابنها بعد خمسين سنة في إحدى مؤلفاته "تأنيث المرأة بين الفهم والإلغاء".

وكانت أسرة عادل سمارة مثل أي أسرة فلسطينية متعددة الأبناء والبنات؛ فقد أنجب والده ستة ذكور وثلاث بنات.

ويستذكر عادل إخوته- بدون ترتيب- فكلهم أشقاء..

- عبد الكريم: الكاتب الصحافي والمحاضر والإذاعي المعروف، ويحمل درجة الماجستير، ويعمل الآن في الفضائيات.. مع السعودية، والفرنسية وغيرهما.
- فريد: وكان ضابطا في الجيش الأردني، انضم إلى حركة الناصريين في نهاية الخمسينيات.. وقد خرج من الجيش.. وهو الآن في الرابعة والثمانين من عمره.
- محمود: وهو مختار القرية، اعتقل مع أفراد الجبهة الشعبية.. ومن ثم عزل عن المختارة بسبب توجهاته الفكرية والسياسية.
- ومن أشقاء عادل.. بدوي.. وهو تاجر في البرازيل .

وبهذه المعطيات نقول: إن اسرة عادل كانت أسرة غنية، وإن لها مكانتها الاجتماعية الرفيعة في الوسط القروي.. حيث نشأ وترعرع.

بطل الدراجات اليافع

درس عادل.. في المدارس الآتية:

الابتدائية في مدرسة القرية

والإعدادية في مدرسة بيتونيا

والثانوية في مدرسة رام الله

ومن أعز ذكرياته تلك السنوات الخوالي فوزه بالمركز الأول على المملكة في سباق الدراجات. وكان ذلك عام 1960 ويومها مثل مدرسة بيتونيا وكان في المرحلة الإعدادية.

هؤلاء علموني

تأثر عادل سمارة في المرحلة الابتدائية بالأستاذ أحمد حسن من قرية الطيرة وكان مدير المدرسة.. ومعلما للغة العربية.. وهو الذي ألقى بذور الوطنية في نفس عادل المتفتحة، وكان مربيا غير تقليدي لا يتقيد بالمنهاج.. فقد عرف كيف يعلمنا معنى القومية العربية، والانتماء إلى القيم النضالية والعربية.

وأذكر أنه أنشأ مكتبة من تبرعات النساء العجائز.. فهذا الكتاب هدية من الحاجة نفيسة وتلك الرواية من تبرع قدمته أم حسين، وهذا الديوان من أم أحمد... وهكذا.

أما في المرحلة الإعدادية فقد تأثر عادل بالأستاذ محمد يوسف عبد الجليل من قراوة. وكان هذا المعلم بعثيا.. يقول عادل: لقد تأثرت بهذا المعلم من الناحية السياسية، ومن ناحية العمل الوطني.. بل إنه لقنني درسا.. لا زلت أتذكره حتى الآن.. درس عملت من وحيه طوال عمري في الوطن والغرب والشرق.

ذات يوم كنت أقود دراجتي.. بسرعة ومهارة.. فتى يافعا يخطو إلى سنوات المراهقة.. ولما لاح سرب من الفتيات أخذت أطاردهن بدراجتي.. ولما لمحني المعلم.. استوقفني وقال لي:

- أليس عارا أن يكون المناضل بهذه الأخلاق؟ كيف تطارد البنات.. وأنت المتفوق الرياضي المناضل؟

لقد ظلت كلمات معلمي هذه نبراسا في حياتي.. إن فاقد الشيء لا يعطيه. وإن المناضل السياسي المقاتل.. الملتزم.. يجب أن يكون على خلق قبل كل شي.

وفي المرحلة الثانوية.. تأثرت كثيرا بالأستاذ أحمد فهيم جبر.. وهو معلم فذ يمتاز بحضور وشخصية وثقافة ومقدرة، إنه أنموذج قلما تلتقيه بين المعلمين يجيد العربية، والانجليزية، والعلوم والتاريخ.. وله طريقته المميزة الساخرة المحببة في تناول الأحداث وعرضها والتعليق عليها.

وكان الأستاذ أحمد فهيم جبر قد أثر بجيل كامل من طلبة مدرسة رام الله الثانوية، وكان رجلا ديمقراطيا له ميوله الدينية وثقافته الإسلامية، ولكنه لم يكن متطرفا.. ولا عجب بعد ذلك أن ينال أحمد فهيم جبر درجة الدكتوراه.. وأن تربطني به صداقة متينة حتى الآن.

الرصاصة الأولى

في 21 نيسان 1963 اندلعت تظاهرات في جميع مدن وقرى الضفة الغربية مطالبة بأن ينضم الأردن إلى وحدة سوريا، مصر والعراق. وعلى أثر هذه التظاهرات أصبت برصاصة لا تزال حتى الآن تستقر في ساقي وقد أحدثت لي ألما في الأسبوع الماضي استدعى أن اذهب إلى الطبيب. المهم أن تلك التظاهرات أدت إلى اعتقالي لأول مرة عند الأردن إذ حُكمت ستة أشهر وأذكر أن إصابتي بالرصاصة كانت قرب سينما الوليد عند مخبز الأرز وذهبت للعلاج إلى مستشفى رام الله بعد أن غيرت اسمي واسم البلد. وبمساعدة ممرض صديق ذهبت إلى مستشفى المطلع إلى العلاج ولكنهم هناك اكتشفوني وحبسوني.

وفي منتصف عام 1963 انتظمت مع القوميين العرب، وقد نظمني الأستاذ يعقوب العبيدي مدرس الجغرافيا الذي كان يبحث عن العناصر الوطنية ويستقطبهم وينظمهم في صفوف المقاومة والأحزاب.

وأذكر أني في تلك الفترة التحقت بالجامعة اللبنانية في بيروت لدراسة الاقتصاد والعلوم السياسية، وكنت قد قُبلت طالبا منتظما ولكن الحركة التي كنت أنتسب إليها رأت أن أحول دراستي إلى انتساب وأن أعود إلى ربوع الوطن، وأذكر أنني في السنة الأولى كنت الخامس من أصل 450 طالبا وطالبة، وقد حزت على جائزة مقدارها 500 ليرة لبنانية وعندما عدت اشتريت بالمبلغ رشاشا.

الاعتقال عوداً على بدء

في سنة 1965 اعتقلت عند الأردن للمرة الثانية وذلك بتهمة انتسابي إلى (أبطال العودة) وهو تنظيم مسلح تابع للقوميين العرب. وكنا مرتبطين بالدكتور وديع حداد.

واستمر اعتقالي لمدة سنة، عدت بعدها إلى الجامعة. وكان اعتقالي في بيت صفافا على الحدود من قبل الجيش الأردني.

بعدها اعتقلت سنة أخرى وحجزوا جواز سفري ومُنعت من السفر وحاولت أن ادرس في الجامعة الأردنية وقابلت ناصر الدين الأسد رئيس الجامعة الأردنية والدكتور رشيد الدين دكر وهو سوري وكان وزيرا للاقتصاد في حكومة الانفصال. وقد رفضوا قبول طلبي فلم أكمل الجامعة حيث كنت ممنوعا من السفر.

في 1966/10/29 سمح لي بالسفر إلى لبنان لمحاولة استكمال الدراسة، وكان عبد الناصر قد أغلق مضايق تيران في 13 أيار 1967 في وجه الملاحة الإسرائيلية. وفي هذا الجو النضالي عاد أبطال العودة إلى العمل والقيام بعمليات فدائية وعلى أثرها وصلت إلى رام الله في 3 حزيران 1967.

وبعد أن انتهت الحرب سافرت إلى الأردن وجددت اتصالي بأبطال العودة والقوميين العرب وانضممت إلى الجبهة الشعبية فكنت من الخمسة المسؤولين عن الجبهة في الضفة الغربية وهم:

- أبو علي مصطفى
- عزمي الخواجا
- أحمد خليفة
- عبد الله العجرمي
- عادل سمارة

وكنت أصغرهم سنا.

عملية مطار اللد

وقد اعتقلت في 1967/12/15 في أعقاب عملية مطار اللد التي قام بها مجموعة مشتركة من أبطال العودة وجماعة أحمد جبريل.

وعلى اثر هذه العملية أصبحت الجبهة الشعبية تضم مجموعة أبطال العودة وشباب الثأر وهما من فروع القوميين العرب بالاتحاد مع جماعة السيد أحمد جبريل.

وقد حُكمت بخمس سنوات أمضيتها في السجن وتم الإفراج عني في أوائل عام 1973.

العرب اتفقوا على أن لا يتفقوا

أثناء وجودي في السجن اندلع الخلاف بين جورج حبش ونايف حواتمة على مبدأ الالتزام بالماركسية، فلما حصل الانشقاق في الخارج قمت أنا بانشقاق في السجن، فقد انضممت إلى الجبهة الديمقراطية بناء على الالتزام بالماركسية. علما بأن لي فهمي الخاص.

وبعد أن تركت الجبهة الديمقراطية أعدت ارتباطاتي الفكرية مع أُسس الجبهة الشعبية.. وأستطيع أن أقول إنني أعتبر نفسي عروبيا ماركسيا أومن بالقومية العربية والفكر الماركسي مثل رجاء النقاش وعبد الرحمن الشرقاوي وأمين العالم وغيرهم من المفكرين.

مفكراً وكاتباً حراً

يقول عادل سمارة:

في سنة 1975 أصدرت أول كتاب لي بعنوان "اقتصاد المناطق المحتلة.. التخلف يعمق الإلحاق".. وكنت أعمل في جريدة الفجر. وفي العام 1979 اعتقلت على عضوية قديمة في الجبهة الديمقراطية وأمضيت ستة أشهر، وفي سنة 1976 أصدرت كتاب "الصراع السياسي في الوطن العربي". في سنة 1977 ذهبت إلى زيارة فرنسا بدعوة من منظمة ماوية هي اليسار البروليتاري. كما أصدرت دراسة عن العمال العرب في فرنسا. فقد عشت معهم ومع الفلاحين وشعرت عن قرب بتفاصيل حياتهم وشجونهم.

وفي عام 1978 أسسنا اتحاد الكتاب والأدباء، واتحاد الصحفيين العرب الذي عرف باسم رابطة الصحفيين. وبعد خروجي من السجن عام 1979 أصدرت كتابا بعنوان "اقتصاديات الجوع في الضفة والقطاع". وقد بلغ عدد الكتب التي أصدرتها أكثر من 30 كتابا صدر كثير منها في بيروت ودمشق وفلسطين. وسيصدر قريبا لي كتاب بعنوان "الثورة المضادة.. إرهاصات أم ثورة"!

الدكتوراه .. أخيراً

كنت ما أزال أشعر بالألم والغصة تأخذ عليّ أقطار نفسي كلما تذكرت الجامعة، ولم أكن أسلم بأن تخلفي له ما يبرره، كان علي أن أقهر الظروف وأن أكون سيزيف الذي يحمل الصخرة ويصعد بها مرة بعد أخرى، ومن هنا فإنني في عام 1984 سافرت إلى لندن من أجل الدراسة وفي تلك الفترة عرضت علي ريموندا فلوسا من أبو عمار ولكني رفضت.

وقد حصلت على الدكتوراه وكنت موضع تقدير من أساتذتي لدرجة أن أستاذي المشرف شهد بأن هذا الطالب أفضل طالب درس في جامعة لندن من الطلاب الدارسين من الشرق الأوسط، وعرض عليّ أن أعلّم في لندن ولكني رفضت.

مفارقات مؤلمة

ببساطة شديدة وبدون انفعال يقول أبو يزن: لقد ألفت ثلاثين كتابا وكتبت آلاف المقالات وعملت في صحافة بلادي وفي الصحافة العربية في لندن وكتبت أبحاثا ودراسات علمية أكاديمية، ليس أدبا ولا خيالا ولا روايات ولا أشعار مع تقديري لهذه المفردات وإنما كتبت فكرا سياسيا واقتصاديا وعرضت آراء ورؤى تنير الطريق للأجيال. ومن المؤسف أن عشر جامعات في وطني الذي أفنيت نصف عمري في السجون من أجله، هذه الجامعات رفضت أن تلحقني كمحاضر في أي منها.

ولست نادما ولست رجل الفرص الضائعة وإنما أنا أومن دائما بما يقوله الشاعر:

"مشيناها خطى كُتبت علينا ومن كُتبت عليه خطى مشاها"

ولا أدري ربما تعاقبني الهيئات الأكاديمية لرفضي الانضمام إلى الوفد الفلسطيني الاقتصادي المفاوض في اتفاقيات باريس عشية اتفاقيات أوسلو.

في 1 تموز لهذا العام سأكون في الجزائر للمشاركة في الاحتفال الخمسين لاستقلال الجزائر.

مواقف لا تنسى

أخي عادل..

لا زلت أذكر مواقفك من قضايا الوطن الحساسة، حيث كنت تحسم بمقالاتك ومواقفك وسياستك الحكيمة وأفكارك النيرة المميزة والرائدة كلما كان يعصف بالوطن من خلافات ومواقف تحتاج إلى الحكمة والجرأة والصراحة.

ولا زلت أذكر لك مواقفك الرائعة في قضية الانتخابات البلدية حيث كانت هناك مقولات وآراء تحاول أن تمنع إجراء الانتخابات بحجة أن ذلك يتعارض مع القانون الأردني. ولكنك قلت بعبارة صريحة رائعة: علينا أن نتعلم من التاريخ، فعندما وقعت اليابان تحت حراب الاحتلال الأمريكي اقتبس اليابانيون من أمريكا مفاهيم وأساليب وأسس الانتخابات الديمقراطية. لقد تعلمت الأمة المهزومة من جلادها مبادئ الديمقراطية، ولذلك علينا أن نفيد من وجود الاحتلال ونقتبس مبادئ الديمقراطية ونقوم بإجراء انتخابات للبلديات بل علينا أن نفتح باب الانتخابات للمرأة لتدلي بصوتها كما أن علينا أن نقتبس كل شيء جميل لأن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها من أي مصدر خرجت، على أن القوانين العالمية حسب قوانين جنيفيا تمنع الدولة المحتلة من تغيير قوانينها ولما كانت الأردن هي الدولة صاحبة السيادة فلا يجوز أن يتم تغيير قوانينها.

وتصدى عادل سمارة لهذا المنطق وقال إن القوانين الأردنية كانت ظالمة ومجحفة بحقنا ومتخلفة عن لغة ومعطيات العصر. ولذلك لا بد من تغييرها وإتاحة الفرصة للمرأة كي تنتخب وتُنتخب.

كما أن الوعي الشعبي والنسائي كان يدرك أن الإسهام في الانتخابات إنما هو تأييد لمنظمة التحرير على نحو ما تفضل به الدكتور عزمي الشعيبي في مقال سابق.

ورائداً ونصيرا لحقوق المرأة

لقد علمت الجيل الصاعد في الأراضي المحتلة كيف تكون المواقف، وكيف تكون المبادرة بالإعلان عن الرأي الشجاع المنبثق من صميم الواقع دون أن ننتظر أي توجيه من الخارج. فنحن أدرى الناس بتجربتنا وواقعنا ولا شك أن "أهل مكة أدرى بشعابها". وكانت المنظمة تستنير بهذه الأفكار التي تقوم بعرضها وهي خلاصة المناقشات التي كان يفكر بها صفوة أبناء الشعب الفلسطيني.

وإني أقدّر لك مواقفك وبعد نظرك حيث كنت تتصدى للمقولات والشائعات التي تحاول المخابرات الإسرائيلية بثها حول الشخصيات والرموز الوطنية، فقد كنت هدفا للمخابرات الإسرائيلية ومحاولة تشويه سمعتي وبث الجواسيس والعملاء بعد تزويدهم بكل ما يسيء إلي والى نشاطاتي وحضوري على الساحة الفكرية والنضالية، فقد كنت أفسح المجال للكتاب اليساريين الإسرائيليين وأعضاء الكنيست ممن يتعاطفون مع القضية الفلسطينية، وكنت أرتب في بيتي مقابلات مع هذه الشخصيات لاستقطابها وضمها إلى وجهة النظر الفلسطينية والدفاع عنها، وقد تم ذلك على امتداد مسيرتي الصحافية والنضالية وخاصة في فترة فرض الإقامة الجبرية عليّ في بيتي.

وكان عادل سمارة يستغل السجن في التدريس والتوعية ومناقشة الأفكار والقضايا الفكرية والنضالية ما يسهم في رفع مستوى وثقافة السجناء والمعتقلين.

وعندما تعرض لكتاب نوال السعداوي "الوجه العاري للمرأة" وأخذ يناقش هذا الكتاب ويقرأه اعترض الإسلاميون، وأدى هذا الاعتراض إلى اشتباكات بالأيدي، ولكن عادل لم يتراجع وبقي صوته مرتفعا في فضاء

المعتقل وقال لهم من لا يريد أن يستمع فليغلق أذنيه. وعندما رفعوا أيديهم عن آذانهم بصورة تدريجية أخذوا يستمعون إلى منطق وقضايا الكتاب، وبالتالي أخذوا في مناقشة عادل حول قضايا المرأة المعاصرة خاصة وأنه ضرب لهم مثلا بالمرأة الجزائرية التي شاركت في الثورة فلما تحقق الانتصار تم إقصاؤها على يد التيارات الإسلامية المتطرفة.

مناضلاً لا يخاف ولا ينحني

أخي عادل..

إن مسيرتك النضالية ثائرا ومفكرا وكاتبا ونصيرا تجعلك في منزلة الرواد، كما أن تأييدك لحرية المرأة ودفاعك عنها واهتمامك بالتراث واعتباره خندقا للنضال والتوعية كل ذلك بالإضافة الى نظراتك وأساليبك وأفكارك ورؤاك الاقتصادية والعمالية والإعلامية كل ذلك يجعلك رائدا ومفكرا يستحق ألف باقة من الورد.

(2012/6/29)

المهندس مروان عبد الحميد

125 ألف مهندس فلسطيني يرفعون علم فلسطين ويؤكدون هويتها في كل أنحاء العالم

أول درس في الوطنية تلقيته من معلمنا غسان كنفاني

أبو الهول أخي وأستاذي اغتالوه مع صلاح خلف ففقدت أعظم صديقين في حياتي

شهادة حاسمة في رحيل الرئيس

قبل أن أقدم باقة ورد للصديق العزيز رفيق الدرب مروان عبد الحميد، يسعدني أن أفسح له هذا الهامش في هذا المكان المشرف ليدلي بشهادة صدق وموضوعية حول رحيل الزعيم الفلسطيني الذي ما زال رحيله جرحا داميا في قلب كل فلسطيني وشغلا شاغلا لكل ذي عقل لبيب وقلب جريح مسكون بحب الوطن ورموزه الخالدة وياسر عرفات في الطليعة دائما.

يقول مروان عبد الحميد:

كعادتي كنت أطمئن على الرئيس أبو عمار بانتظام وأنا ممثله في اليونان كسفير دولة فلسطين. وفي إحدى المكالمات بعد أن بدأت تظهر في العالم أخباره الصحية، وقد بدأت الشكوك بالنهاية المحتومة للزعيم التاريخي للشعب الفلسطيني، قال لي: "لقد وصلوا لي يا خوي!".

تيقنت من ذلك بعد أن أصدرت الحكومة الإسرائيلية قرارا معلناً بالتخلص من ياسر عرفات، وهكذا اعترف المجرم بجريمته، وعندما يعترف المجرم بجريمته فلا حاجة إلى إبراز الدلائل.

واستغرب هنا ما تقوم به الجزيرة لإثبات ما هو مثبت، وإذا أرادت أن تقوم بعمل إيجابي باستعمال العلماء والأدلة بشكل قاطع وبراهين دامغة بأن إسرائيل هي التي وضعت الإشعاعات في جسد أبو عمار، فهذا يفرض عليها متابعة هذا الملف من اجل محاكمة المجرم بمحكمة الجنايات الدولية واتخاذ العقوبات التي تنص عليها القوانين الدولية.

عندما أعلن عن نقل الزعيم من رام الله إلى باريس للعلاج، تأكدت أن في الأمر خطرا فادحا قادما، فقطعت زيارتي للصين حيث كنت هناك لحضور أحد المؤتمرات، عائدا إلى باريس للبقاء فيها بجانب القائد إلى أن وافته المنية.

وهكذا كانت نهاية البطل الذي قاد الكفاح الفلسطيني، وأصبح بحق رمزاً وطنياً وعالمياً خالدا.

لقد كان الحزن والألم يَملؤني وأنا أعود بنفس الطائرة التي تقل جثمان أغلى الرجال، ولا أنسى اللحظة التي جاء بها الرئيس الفرنسي جاك شيراك لينحني أمام الشهيد أبو عمار، ويذرف دموعاً فاجأت الجميع، لتؤكد المكانة التي يتمتع بها أبو عمار، وخاصة ذلك الوداع المهيب والرسمي لجثمان الزعيم الذي سيبقى خالدا في التاريخ.

شقيقان على درب المعاناة والوطنية

لم أرَ في حياتي إنسانا يحب أخاه مثل هذا الحب، فالأخ الصديق مروان يذوب وجدا وحبا في أخيه بطلنا الشهيد أبو الهول (هايل عبد الحميد). الفرق بينهما أربع سنوات فقط، لكن مروان ينظر إلى أخيه نظرة إكبار وإعجاب وإجلال قد تصل إلى حد التقديس.

اسمه على لسانه أنشودة
وبطولة وفداء
سيرته دروس ومنارة
حياته مشوار كفاح وريادة
ذكرياته وأيامه ولياليه ورحلاته زاد فكري
وإنساني وتاريخي
يجعل في هذه الحياة ما يستحق أن نعيش له على رأي شاعرنا محمود درويش.

شقيقان من صفد في معترك الحياة

ولو قُدر لي أن أكون أمينة في عرض الصور التي قدمها مروان عن شقيقه هايل، فإن أنهار هذه الصحيفة ستضيق عن استيعاب ما قاله.

وعندما نعود إلى مقولتنا الفلكلورية نجد تلك المقولة الحكيمة: "من أحب شيئا أكثر من ذكره".

ومروان يتمنى ويتواضع ويتراجع ليقدم صورة نابضة بالبطولة والشجاعة والقيادة لأخيه هايل لأنه يرى في عظمة أخيه واستشهاده وحياته ونضاله صورة تجسد البطولة وتسطع في سماء المجد فلا تدع لغيرها إلا بقايا وآثار بصيص خافت لا يكاد يبين.

وحول استشهاد أخيه مع صلاح خلف و(الكادر) أبو محمد على يد أحد أفراد الحراسات كتب يقول:

"في مساء اليوم الأخير من عام 1991 تلاقينا، وحدثني عن أحلام مزعجة تراها زوجته (نادرة) وكلها تشير إلى أنه سيقتل. وودعنا بعضنا وداعا حارا ولم يخطر ببالي أنني أرى أخي ورفيق عمري للمرة الأخيرة.

أودعك أيها الحبيب وأنا أتأمل ثلاثين عاما قضيناها معا في ألمانيا، والصين، ولبنان، والقاهرة والمنافي.

إن قصة استشهادكم ستبقى تحرك الأسى والألم، والمؤمنون وحدهم هم الذين يعلمون أن الموت كالحياة لا اختيار لنا فيه فهل تختار الوردة قوة الريح؟ وهي يختار البحر شكل الموجة؟ وهل يختار الجسد عمق الطعنة؟

ألسنا من أمة تؤمن بأنه "إذا ما جاء أجلهم فإنهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون".

غسان .. مدرس الرسم والرياضة

بُعيد أحداث النكبة عام 1948 خرجنا من صفد وتوجهنا إلى دمشق.. كنت حينها في الصف الثاني الابتدائي، وبدأت حياة العذاب والشقاء والتشرد كأي لاجئ فلسطيني.. ولكن قدر الفلسطيني أن يواجه الكوارث بقلب شجاع وإرادة لا تلين حتى لو كان في مرحلة الصبا والطفولة.

ومما هون علينا عذاب تلك الأيام وقسوتها وجود المدرس الشاب الأستاذ غسان كنفاني. كان شابا رياضيا مميز الملامح رشيق القوام ضئيل الجسم، ولكنه كان مفعما بالحيوية والنشاط والجرأة في بريق عينيه ثورة وحزن وشجن دفين.

ورغم صغر سني فقد تلقيت منه أول دروس الوطنية والانتماء وحب الوطن، كان قادرا على تعميق إحساسنا بالوطن وبالجرح الذي أحدثته النكبة في حياتنا.

كان في اختياره لما نرسمه أو يرسمه هو لنا موضوعات تفتح أعيننا على الجرح الفلسطيني والوطن المغتصب. كان صورة أخرى محببة من أخي هايل، كان كلاهما يمثل الجيل الرافض للهزيمة، والذي يعمل على إنهاء النكبة، وتجاوزها في ذلك الوقت المبكر من مطالع الخمسينيات.

بحب واعتزاز وفخر وبنشوة وشجن وتواصل ووجدان أزهو باعتزاز وفرح وبهجة أني كنت طالبا من طلاب الأديب الثائر المناضل المبدع غسان كنفاني، الخالد في قلب كل فلسطيني، رمز النضال العالمي العظيم، كمفكر قال كلمته بالدم قبل أن يقولها بالحبر.

واحد من سبعمائة

كانت أوضاعنا المادية في سوريا كلاجئين غير ميسورة، كنا نعيش في حياة مقبولة بشق الأنفس، وسافرت إلى القاهرة وانضممت إلى أول مؤتمر تأسيسي للاتحاد العام لطلبة فلسطين بصفة مراقب في 29 نوفمبر 1959، ومن ثمّ عقدت أول اتفاقية بين طلبة يوغسلافيا واتحاد طلبة فلسطين، وكانت هذه الاتفاقية تنص على أن يقدم اتحاد يوغسلافيا منحتين دراسيتين لاتحاد طلبة فلسطين.

وكان ذلك في ظل الوحدة المصرية- السورية، وأعلن عن هاتين المنحتين في سوريا فتقدم إليها المئات، ورأى "لطف غنطوس" السكرتير العام للاتحاد أن تقسم المنحة إلى أربعة أقسام حتى ينال كل فرع من فروع اتحاد طلبة فلسطين منحة، وكانت هذه الفروع هي:

* القاهرة
* بيروت
* الإسكندرية
* دمشق

وأعلن فرع الاتحاد في دمشق عن هذه المنحة التي كانت عبارة عن 12.5 دولار شهريا فتقدم إليها 700 طالب وتم اختياري لها على أساس ما يلي:

الانتماء الوطني

الحياة الاجتماعية المادية

العلامات

وتدخلت وزارة التربية والتعليم لتمنع هذا الترشيح على أساس أن المنحة تقررها وزارة التربية والتعليم السورية، فسافرت إلى القاهرة وقابلت كمال الدين حسين وبمساعدة الأخ لطف غنطوس حصلت على المنحة وسافرت بعد أن أمضيت عاما كاملا في الانتظار.

وكان لهذه الحادثة دلالة رمزية هامة وهي أن الشعب الفلسطيني هو صاحب الولاية وأن لا أحد له حق الولاية عليه.

هايل وأنا: مَن يموّل دراسة مَن

كانت المنحة التي حصلت عليها للدراسة في يوغسلافيا لا تكاد تسد نفقات الأكل، وكان لا بد من وجود مصادر تمويل.

وكان أخي هايل قد سافر إلى ألمانيا لدراسة العلوم السياسية. فلما التقينا قال لي:

- لا بد أن يتفرغ أحدنا للدراسة وأن يتفرغ الآخر للعمل الوطني.

قلت له:

- الأمر محسوم لأني أحصل على منحة فواجبي أن اهتم بالدراسة وأتخرج وأعمل لأسد احتياجاتك، وعندما أتخرج لكل حادث حديث.

يومها كان هايل يعمل بكل جهد مستطاع ليضم إلى (عرب فلسطين) العمال والمهندسين والعاملين الفلسطينيين في ألمانيا إلى التنظيم الذي أنشأه وهو عرب فلسطين. ويومها قال لي العبارة المشهورة:

- "عندما تكون متفرغا للعمل الوطني وليس لك مصدر مالي يدعمك فأنت رهينة لقرار صاحب العمل".

انسحب النيجيري وهزمت الفرنسي

في عام 1975 تقدم اتحاد المهندسين الفلسطينيين لعضوية الفيدرالية العالمية للمنظمات الهندسية تحت رعاية اليونسكو ومقرها باريس وتضم حوالي مائة دولة. وكادت هذه المنظمة تنقسم على نفسها بسبب عضوية فلسطين، واستقال الأمين العام البريطاني الجنسية احتجاجا على دخولنا في هذه المنظمة.

وبدأنا العمل في الحقل الدولي من أجل تثبيت الهوية الفلسطينية، ودعم وجودنا في الأسرة الهندسية العالمية، واستطعنا بالفعل إظهار القدرات الهندسية والمهنية من خلال المشاركات الفعالة، في كافة الندوات العلمية والتظاهرات العالمية الهندسية، ولم نترك ولو لمرة واحدة نشاطا هندسيا هاما إلا وشاركنا فيه.

وقد توجت جهودنا بأن قررت الأمانة العامة في عام 2011 بترشيح مروان عبد الحميد لمنصب الرئاسة، وعقد المؤتمر في جنيف في مقر الأمم المتحدة بعضوية 93 دولة وكان التنافس شديدا بين ثلاثة مرشحين:

* المهندس النيجيري
* المهندس الفرنسي
* المهندس الفلسطيني

وقبل إجراء التصويت انسحب النيجيري وتم التصويت على المرشحين الفلسطيني والفرنسي، ففاز ممثل فلسطين مروان عبد الحميد بـ 57 صوتا في حين حصل الفرنسي على 19 صوتا فقط.

قريباً من أبو عمار .. بعيداً عن كرسي الوزارة

عندما تم إعلان اتفاقية أوسلو في شهر مايو عام 1993 قررنا كاتحاد مهندسي فلسطين أن نعقد ندوة لكبار المهندسين الفلسطينيين في كل أنحاء العالم في تونس تحت عنوان "دور المهندس الفلسطيني في إعمار فلسطين". ووضعنا توصيات هامة لعلها الأهم والأجدى في إعادة بناء الوطن.

وقدمنا هذه التوصيات للرئيس أبو عمار الذي رحب بها وقال إني افتخر بهذا الجهد، ولا عجب فأبو عمار مهندس مدني خريج جامعة القاهرة. وفي الواقع فقد كانت هذه الندوة أهم محطة قبل إعادة البناء.

وبعد ذلك تشكلت في تونس اللجنة الاقتصادية المهنية لمساعدة الأخ أبو عمار. وكنت أنا وعدنان سمارة من أعضائها. ولما عدنا إلى الوطن كان أبو عمار قد طلب منا أن نعمل معه وقال:

كونوا بجانبي، فسيكون عدنان سمارة وزيرا للصناعة وسيكون مروان عبد الحميد وزيرا للإسكان.

ولم يتحقق ذلك. فكل ما حصلت عليه أن أكون مستشارا اقتصاديا ووكيلا لوزارة الإسكان. كما أن عدنان وكيلا لوزارة الصناعة.

صفد مسقط رأس الأبطال

ولد مروان عبد الحميد سنة 1940 في مدينة صفد التي أنجبت أبو مازن (محمود عباس)، وهايل عبد الحميد (أبو الهول)، وحسيب صباغ (رجل الأعمال)، وسعيد خوري وغيرهم من القادة والأبطال والرواد.

كان والدي تاجرا معروفا وكان يمتلك أراض زراعية خصبة تقدر بآلاف الدونمات، وكانت الأسرة مكونة من هايل ومروان وأخت وحيدة إلى جانب الأب والأم.

وعندما انفجرت أحداث النكبة عام 1948 كان مروان يدرس في مدرسة الزاوية الابتدائية. وكان بيت العائلة ملاصقا لسرايا الحكومة، وعندما ذهبت لزيارته في عام 1995 وجدت أن اليهود المجريين قد حولوه إلى متحف.

لن نرحل عن صفد

عندما صدر قرار تقسيم فلسطين عام 1947 كانت صفد من المناطق التي تشملها دولة إسرائيل، وعندما دخل جيش الإنقاذ بقيادة أردنية طلب من السكان إخلاء المدينة تحت ذريعة إنقاذ السكان وعدم إراقة الدماء ولإعطاء جيش الإنقاذ فرصة لإنقاذ صفد.

ولكن أهالي صفد رفضوا الرحيل، ثم توصل الطرفان إلى حل وسط وهو أن يرحل عن المدينة الأولاد الذين كانوا دون الثانية عشر.

كان عدد سكان صفد في تلك الفترة 12 ألف نسمة. وهكذا رحلت أنا وأخي هايل وغادرنا إلى دمشق حيث كان للوالد والعائلة علاقات تجارية مكنتنا من اللجوء في أحد بيوت دمشق العريقة واستقبلنا كضيوف مؤقتين.

وكان والدي قد توفي قبل ذلك، فخضت أنا وأخي أبو الهول حياة اللاجئين بكل ما فيها من ضراوة وألم، ونحن لم نزل بعد في سنوات الصبا الغضة.

"بيدي لا بيد عمرو"

منذ التحاقي بمدرسة الوكالة بدأ الإحساس الوطني ينمو عندي في سن مبكرة جدا.. لم يكن همي الوحيد اللعب.. بل كان همنا كيف نستعيد بلادنا.

وأهم عامل في حياتي كان وجود أخي أبو الهول.

كان هايل مسكونا بالقضية الوطنية، وكان شغله الشاغل هو كيف نحرر فلسطين، من هنا اهتدى إلى تنظيم (عرب فلسطين) عام 1954. ومن أهم الأسس التي قام عليها ذلك التنظيم هو الاعتماد على أبناء فلسطين أنفسهم في تحرير وطنهم دون الاعتماد على الأحزاب القائمة أو الزعامات العربية أو الحكومات، وقرر أخي هايل أن يؤسس تنظيما قائما على هذه الفكرة وهي أنه لن يحرر فلسطين إلا أبناؤها. كان ذلك عام 1954 على أساس أن كل فلسطيني يجب أن ينتمي إلى حركة فلسطينية محضة ليس لها هدف إلا التحرر والعمل الوطني. وكانت الفكرة السائدة في تلك الفترة أن الأحزاب القومية، تطرح فكرة الوحدة طريق لتحرير فلسطين، ولكن (أبو الهول) جاء بفكرة تحرير فلسطين هو الطريق إلى الوحدة.

وها هو التاريخ يعيد نفسه. فالتوجهات الإسلامية تنادي اليوم بفكرة الدولة الإسلامية على أساس أنها الطريق إلى تحرير فلسطين.

يقول أبو سامر، وهذا يعتبر هروبا إلى الأمام، هروب من استحقاق تحرير فلسطين لأن تحقيق الدولة الإسلامية عمل صعب بعيد المنال، بعيد المدى، أما العمل لتحرير فلسطين فهو عمل يومي.

أبو الهول والفكر الديمقراطي

وتأسس تنظيم عرب فلسطين بين مخيمات اللاجئين في سوريا.. والفكرة التي تعلمتها من هذا التنظيم ومن أخي هايل بالتحديد الإيمان بقواعد الديمقراطية، فالقاعدة الذهبية التي يقوم عليها هذا التنظيم أن قيادته مكونة من 12 عضوا بحيث يتولى الرئاسة أو القيادة عضو في كل شهر، وذلك لأن أخي هايل كان يؤمن بالقيادة الجماعية، ومن هنا يتم تدريب القادة ويتحقق مبدأ الديمقراطية.

وقد استمر هذا التنظيم من عام 1954 حتى عام 1960 وكان يقوم بالفعاليات الآتية:

- تنظيم المظاهرات في ذكرى النكبة.
- وفي المناسبات الوطنية الهامة.
- الاحتفال بذكرى الشهداء والأبطال.
- تبني مطالب اللاجئين الفلسطينيين.

المحافظة على الهوية الفلسطينية

في عام 1957 كان هناك برلمان ديمقراطي في سوريا على رأسه أكرم الحوراني وكان تنظيم (عرب فلسطين) يطالب بمعاملة الفلسطينيين معاملة المواطن السوري بحيث تتحقق لهم جميع الحقوق المدنية الكاملة ولكن دون أن يفقد الفلسطيني جنسيته أو يتجنس بالجنسية السورية. وقد تم إقرار هذا القانون بالفعل في ذلك العام ما شكل إنجازا رائعا للتنظيم الذي كان يقوده هايل عبد الحميد (عرب فلسطين).

مقابلة مع أبو مازن

ومن الذكريات التي انطبعت في ذهن مروان عن أخيه هايل عندما ذهب أبو الهول الى مقابلة أبو مازن في عام 1954.

كان الاثنان من مواليد صفد ولكن هايل كان أصغر من محمود عباس.. فلم يتزملا في الدراسة، وكان هايل شابا يافعا لم يجاوز العشرين من عمره.

يقول أبو مازن:

لم تكن الزيارة ذات صبغة اجتماعية لأن هايل كان معه زميلان من معارفي، وتحدث هايل بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن زميليه، ثم دخل في الموضوع مباشرة وقال:

لقد مضى علينا حتى الآن ست سنوات ونحن لم نتقدم شبرا واحدا لتحرير فلسطين. إن كل ما نفعله أن نتحلق حول المذياع أو نتهافت على عناوين الصحف ونركض وراء الأحزاب والزعماء والمؤتمرات لنستجدي تحرير فلسطين. إن فلسطين لن تتحرر إلا بسواعد أبنائها.

ويعلق أبو مازن على هذه الحادثة بانبهار وإعجاب فيقول:

كان الشاب يعرض أفكاره من وحي إحساسه، لم يكن يردد أفكارا ومقولات للآخرين، ولم يكن فكره مقتبسا من الكتب لأنه كان شابا حديث السن لم يقرأ كثيرا ولم يجلس إلى العلماء والمفكرين والزعماء وإنما جاءت أفكاره من وحي إحساسه ورؤيته وعبقريته الوطنية.

ميلاد الاتحاد العام الفلسطيني

ويعود بنا أبو سامر إلى استكمال مشوار حياته فيقول: لقد كنت نشيطا في العمل الطلابي وشاركت في الأعمال الوطنية عندما كنت طالبا نشيطا في الكلية العلمية الوطنية بدمشق وهي مدرسة خاصة تملكها عائلة العائدي. وهي عائلة دمشقية عريقة.

وفي عام 1959 تم تشكيل رابطة للطلبة الفلسطينيين في دمشق، ورغم أني كنت في المرحلة الثانوية إلا أنني انضممت إليها. كما كانت هناك رابطة للطلبة الفلسطينيين في القاهرة وكان يرأسها الأخ أبو عمار ومن ثم تكونت رابطة أخرى في بيروت، ورابطة رابعة في الإسكندرية.

وفي 29 تشرين الثاني 1959 عقد مؤتمر في القاهرة ودعيت إليه هذه الروابط وتم تشكيل الاتحاد العام لطلبة فلسطين وانتخب زهير الخطيب كأول رئيس لهذا الاتحاد.

لا للدكتوراه .. نعم لهايل

كانت دراسة الهندسة حبي وعشقي، ولم تكن اللغة عقبة ولم يكن هناك ما يثنيني عن الدراسة والتفوق. كان علي أن أتفوق وأحصل على الشهادة في مدة قصيرة لأن اتفاقي مع هايل كان يفرض عليّ الجد والاجتهاد فهو الذي تفرغ للعمل الوطني وأنا الذي أدرس.

ولذلك كنت الرابع في سرعة التخرج من بين 522 طالبا في دفعتي وحصلت على الماجستير من كلية الهندسة عام 1967 وحاول أستاذي أن يحصل لي على منحة وأن يمد إقامتي سنتين للحصول على الدكتوراه ولكني قلت له: أنا ملتزم بشيء آخر.. أنا أريد الآن أن أنفذ اتفاقي مع أخي.

مع أبو عمار وأبو جهاد في فتح

حتى عام 1962 لم يكن هايل قد أبلغني بأنه تخلى عن عرب فلسطين وانضم إلى حركة فتح، ولكن في عام 1964 قابلت أبو عمار وأبو جهاد في دمشق بوساطة محمود الخالدي وأقنعاني بالانضمام إلى حركة فتح وقد كنت قد أنهيت علاقتي مع حزب البعث ولما حاولت أن اعتذر قالا لي: أخوك معنا.

وهذه العبارة القصيرة حسمت الموقف بصورة نهائية فأقسمت اليمين وانضممت إلى فتح.

"الطيبون للطيبات"

ويستذكر أبو سامر جزءا عزيزا عليه من حياته وهو في بلجراد فيقول:

كنت ضد الزواج من الأجنبيات لأن ذلك يشتت جهود الطالب ويبعده عن هدفه الحقيقي، ولكن التقائي بزوجتي جعلني أكسر هذه القاعدة فقد كانت (ولا تزال) فتاة جميلة من أسرة علمية عريقة أبوها بروفيسور يرتبط بصداقة مع الزعيم تيتو، وأمها طبيبة وتتمتع بأخلاق رفيعة. وهكذا تزوجنا عام 1965.

مهندسون .. نبني الجزائر ونؤسس لفلسطين

بعد تخرجي ذهبت إلى الجزائر التي كانت قد استقلت حديثا عام 1965 وكانت في حاجة إلى كوادر هندسية وقد بلغ عدد المهندسين الفلسطينيين في تلك الفترة سبعين مهندسا كانوا جميعهم من فتح وكان طبيعيا أن نؤسس رابطة للمهندسين الفلسطينيين في الجزائر، وكنت عضوا في اللجنة الإقليمية، ودعونا الأخ أبو عمار ليكون أول رئيس شرف لهذه الرابطة ولكن أبو عمار رفض وقال:

أنا لا أقبل إلا أن أكون رئيسا فخريا للاتحاد العام لمهندسي فلسطين.

مهندسون في كل أركان المعمورة

كان معنى رفض الأخ أبو عمار أن يكون رئيسا فخريا لاتحاد المهندسين الفلسطينيين دعوة إلى العمل الجاد لإنشاء الاتحاد العام للمهندسين الفلسطينيين الذي سيمثل كل المهندسين المتواجدين في العالم لصالح الثورة الفلسطينية، وعلى ذلك فقد عقدنا أول مؤتمر بدعوة من الحكومة العراقية في ذلك الوقت لجميع قيادات الاتحاد وكان ذلك في بغداد عام 1973 وشملت الدعوة كل من:

* فرع رابطة الجزائر
* فرع رابطة سوريا
* فرع رابطة العراق
* فرع رابطة الكويت
* فرع رابطة ليبيا

بالإضافة إلى الاتحاد الفلسطيني برعاية منظمة التحرير الفلسطينية وبحضور أبو عمار. وتقرر بما لا يدع مجالا للشك أن المجلس الوطني الفلسطيني يرى في الاتحاد العام للمهندسين الفلسطينيين قاعدة من قواعد منظمة التحرير الفلسطينية وأنه يمثل كافة المهندسين الفلسطينيين في أي تواجد وأن له أعضاء في

المجلس الوطني الفلسطيني، كما أنه عضو في المجلس المركزي الذي يمثله فيه بركات الريس والدكتور فلاح جبر.

أهداف وتطلعات ورؤى

وعندما أُنشئ الاتحاد وضع لنفسه أهدافا محددة يجب تحقيقها وهي على النحو الآتي:

- استعادة الهوية الوطنية الفلسطينية الهندسية التي ألغيت بعد النكبة عام 1948 وذلك على المستوى الفلسطيني والعربي والدولي.
- تنظيم المهندسين الفلسطينيين أينما تواجدوا في فروع الاتحاد العام للمهندسين.
- تخريج الطاقات الهندسية الفلسطينية المتمرسة ووضعها تحت تصرف منظمة التحرير وخاصة في ما يتعلق باللجنة العلمية التي كنا نفتخر بوجودها لدورها المتميز والتي كان يقودها عدنان سمارة.
- تشكيل فروع للاتحاد حيثما استطعنا إلى ذلك سبيلا والاتصال مع نقابة المهندسين في الضفة وجمعية المهندسين في غزة، وكان من أبرز المهندسين الذين لعبوا أدوارا هامة في هذا المجال إبراهيم الدقاق، إبراهيم أبو عياش، عقيل مطر، سعد خرمة، جمال خُضري، محمد القواسمة وحسن القيق من الخليل.

وعلى المستوى الفلسطيني كان الاتحاد يمثل رسميا منظمة التحرير في مجلس وزراء الإسكان والتعمير العرب. وكنت أمثل فلسطين فيه باسم منظمة التحرير.

كما كان لنا تمثيل في مجلس وزراء الزراعة العرب عن طريق المهندسين الزراعيين كما كان لنا حضور في جميع المنظمات الدولية باسم منظمة التحرير وخاصة منظمة "الهبيتات" (وهي منظمة في الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية). وقد كنت المندوب الدائم في هذه المنظمة لفلسطين باسم المنظمة.

وعلى المستوى العربي فإن اتحاد المهندسين الفلسطينيين أصبح عضوا في اتحاد المهندسين العرب في القاهرة.

وهذه في الحقيقة تمثل استعادتنا لعضويتنا المفقودة عام 1948 لأننا كنا أعضاء منذ عام 1933 حيث أنشئت أول منظمة هندسية في يافا برئاسة المهندس رشيد الحسيني، وفي سنة 1944 شارك هذا الاتحاد في إنشاء اتحاد المهندسين العرب. كما أن عضويتنا كانت واردة في مجلس البحث العلمي العربي في بيروت برئاسة الأخ عدنان سمارة.

مع أبو عمار في غزة هاشم

بعد توقيع اتفاقية أوسلو قابلت الرئيس عرفات الذي طلب مني أن أقف معه في مرحلة البناء، وبذلك تم تعييني مستشارا اقتصاديا ووكيلا لوزارة الإسكان. ولم ألبث أن تركت الوزارة لأعين سفيرا في فلسطين في اليونان. كما أنني في مرحلة من المراحل كنت مسؤولا عن إدارة شؤون اللاجئين حيث كنت نائبا للأخ الرئيس أبو مازن.

* * *

وللحقيقة أقول وبفعل قربي الشديد من صانع القرار ومعرفتي الوثيقة بالأخ مروان استطيع أن أقول إن هذا المناضل كان تربطه علاقة خاصة بالزعيم ياسر عرفات وإنه كان يكن له حبا وودا وتقديرا وكان يقبل تدخله في فض كثير من النزاعات التي تحدث بين الكبار، فقد كان يمتاز بالهدوء والحكمة والعقلانية. وكان أبو عمار عندما يلمس تدخله يشعر بالراحة والسعادة ويطمئن إلى أن الخلاف سيطوق وأن الأزمة ستنتهي بفعل حكمته وبعد نظره.

لقد لعب مروان دورا محوريا في ترطيب الأجواء بين الأخ أبو مازن وأبو عمار عشية الأزمة الحادة التي نشبت بينهما عندما تولى أبو مازن رئاسة الوزراء.

وأنا على ثقة أن الأخ مروان ليس في حاجة من منصب ولا إلى تكريم أو سلطة، يكفي أنه الأخ الشقيق للمناضل الشهيد هائل عبد الحميد ويكفي أنه رئيس لمهندسي العالم الذين يبلغ عددهم 20 مليون مهندسا حيث أنه رئيس الفيدرالية 7 العالمية للمهندسين في الأمم المتحدة. ويكفيه فخرا أن عدد المهندسين الفلسطينيين قد بلغ 125 ألف مهندساً وأن نسبة المهندسين الفلسطينيين من أعلى النسب في الوطن العربي. وان عدد فروع الاتحاد 18 فرعا في العالم.

(2012/7/6)

هاني الحسن

"نتقدم ونستشهد خير من أن نتوقف ونموت"

قاد الثورة وعبأ الجماهير للكفاح المسلح ورئس اتحاد طلاب فلسطين في ألمانيا.

تقاسم مع هايل عبد الحميد المعيشة والعلم والدراسة في غرفة صغيرة في فرانكفورت.

أمضى خمسين عاماً في ألمانيا والصين ولبنان ودمشق والجزائر وعمان والقاهرة والمنافي.

هاني الحسن مناضل صلب، وثائر مقاتل، آمن بالكفاح المسلح وأوتي ثقافة وحكمة وخبرة جعلته من صفوة المقاتلين، شكل الخلية الأولى لـ"فتح" في أوروبا وألمانيا مع أبو الهول وهو يدرس الهندسة، أمضى أربعة عقود مناضلا مثابرا متميزا، لا يحيد عن الحقيقة مهما واجهته من المصاعب والتحديات، اشتهر بالصلابة والقوة والمواقف الوطنية والفكر الاستراتيجي والإيمان بالنصر. ترك أبو طارق تراثا حضاريا تقدميا وفكرا ثوريا أصيلا ليكون نبراسا تهتدي به الأجيال المناضلة الصاعدة.

ولد سنة 1938 في حيفا لوالده الشيخ سعيد الحسن الذي أنجب أربعة أولاد وبنتين، وكان والده الشيخ مناضلا في صفوف ثورة عز الدين القسام.. ثم أصبح خطيبا لمسجد الاستقلال.

وبعد أن أنهى دراسته الثانوية في دمشق انتقل إلى ألمانيا لدراسة الهندسة.. وهناك التقى نخبة من أبناء فلسطين ممن جمعوا بين الدراسة والتفوق العلمي.. والنضال الوطني الصلب.. وكان رئيسا لاتحاد الطلبة في ألمانيا لفترات طويلة، صديقا وأخا لتوأم روحه في النضال والحياة هايل عبد الحميد.

وكان يوصف برجل المهمات الصعبة، وكان حافظا وأمينا لأسرار فتح، وفعالا في رسم إستراتيجيتها، ونسج علاقاتها مع الملوك والزعماء وكان مفاوضا بارعا، عرف عنه دماثة الخلق والزهد والمسؤولية، والحرص على المصالح العليا للشعب الفلسطيني والثبات على المبدأ.

صورة متكاملة لفكره وبطولاته

وسأعرض- كعادتي- ومضات قصيرة من مواقف وفكر الصديق هاني الحسن.. دون ترتيب زمني.. فلا يهمني أن أقدم سيرة تقليدية مدرسية لحياته وإنما أريد أن اعرض مواقف عبقرية من فكر ورؤى واحد من أهم القيادات التاريخية الفلسطينية التي عاصرتها والتقيت بها.

في العاشر من شهر حزيران عام 1982.. أي بعد ستة أيام فقط من بدء القتال خرج الجيش السوري من المعركة، وبعد ذلك جاءنا الإسرائيليون من الجبال فحاصروا صور وصيدا وبيروت في وقت واحد.

ومع ذلك تمكنا من وقف زحف هذا الجيش الذي يرتجف أمامه الكثيرون في المنطقة. لقد وقف هذا الجيش 87 يوما أمام بيروت دون أن يتمكن من اقتحامها.

ولا أنسى حين دخل علينا فارس الفرسان سعد صايل وكنا خلال اجتماع للقيادة السياسية وهو يحمل المصحف والمسدس في يده وقال: أقسم أننا لن نسمح للإسرائيليين بدخول بيروت ما دام فينا رجل قادر على القتال.

ثم طالب القيادة السياسية بمغادرة بيروت على اعتبار أن هذه معركة العسكر.

فأجابه رمز الثورة، ورمز الصمود في بيروت أبو عمار:

- والله يا أبا الوليد.. إذا خرجنا من بيروت، فإن أحدا لن يقاتل، فهذا الشعب لن يحترم قيادة تغادر ساحة القتال عندما تكون مهددة بالموت، فإما أن نخوض المعركة وإما أن نستشهد. حيث ستفجر دماؤنا البراعم التي ستتابع المسيرة بعدنا.

أبناء الثورة المستحيلة

يقول هاني الحسن: أذكر أنني عندما قابلت الزعيم الصيني الراحل "ماوتس تونغ" ضمن وفد فتح عام 1964، قال لنا بالحرف الواحد: خذوا ما تريدون من الدعم المادي والعسكري، وأرسلوا من تريدون كي يتدربوا، ولكن بعد دراستي لقضيتكم وجدت فيها العوامل المحلية والدولية متداخلة تداخل أسنان القرش. فإذا ما تمكنتم من تفجير الثورة والاستمرار بها، فإني آمل أن أكون على قيد الحياة وأكتب عنها.

وحديث ماوتس تونغ يعني أننا أبناء الثورة المستحيلة، بحكم الجغرافيا والظروف الدولية.

***

كان هاني الحسن منظرا عاقلا حكيما.. بعيد النظر.. شديد البلاغة.. قوي الحجة والمنطق.. كان واعيا عارفا بالتاريخ وحقائق الجغرافيا والتاريخ.. وكان دائما فكرا صادقا ومنطقا قويا.. يعرف ما يريد.. ويعرف كيف يصل إلى ما يريده.

كيف نجد أوكسجين المواجهة

يقول هاني الحسن: كان الأديب الفرنسي فلوبير يقول دائما: "أنا لم آت لأقرض، وإنما لأقترض".. ولذلك.. فإني أحب أن أتعرف دائما على وجهات النظر لدى إخواني. لقد مررنا بمعارك طويلة وكان همنا دوما كيف نجد جبهة الأوكسجين اللازم للمواجهة، ولحصد ما زرعنا، وتنفيذ شعار النضال المسلح. النضال السياسي يحصد، ومن لا يزرع لا يحصد، ومجرم من يزرع ولا يحصد، ولا أريد أن أقف طويلا أمام محطات المواجهة.

في مسدسي خمس طلقات

وهاني الحسن كان دائما قريبا من الأحداث.. قريبا من صانع القرار.

عندما تم حصار بيروت أتى السفير السوفياتي ليعرض علينا أن نخرج من بيروت وقال:

- إن المهم هو الحفاظ على الكوادر.

فقال له الأخ أبو عمار:

- أخرج.. إلى أين؟

فقال له:

- عليك أن تخرج ولو حتى تحت حماية المدمرات الأمريكية، وإلا ستؤخذ أسيراً.

وبالوضوح السياسي الذي كان متوفراً وموجوداً، وبإرادة حديدية قال الأخ أبو عمار للسفير الروسي:

- إذا خرجت من هذا البلد بدون قتال فلن أطاع. وهذه المعركة بالذات سوف تقرر إذا ما كان الفلسطينيون هم طرف في المعادلة الدولية، أم أنهم ليسوا طرفاً.

وعندما قال له:

- فإذا أخذت أسيراً؟

أجاب الأخ أبو عمار:

- إن من في مسدسه طلقتان لا يؤخذ أسيراً، وفي مسدسي خمس طلقات وليس طلقتان.

الإرادة .. تجنبنا حروباً

هاني الحسن منظر مثقف.. دائرة معارف فلسطينية، تاريخية وسياسية يديرها عقل ذكي عاقل وطني مخلص.. كتب يقول:

أذكر أن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون قد ذكر في كتابه أنه عندما ذهب إلى ماوتس تونغ سأله ماو:

- ما الذي تريده مني؟

فأجابه نيكسون:

- السلام.

فأعاد نيكسون السؤال على ماو:

- ما الذي تريده مني؟

فرد ماو:

- أريد السلام والعدل.

نحن نريد السلام والعدل وإذا ما توقفنا عن تقدم التنازلات فإننا سوف نحقق نجاحاً، والإرادة كما قيل تجنبنا حروباً.. إن علينا أن لا نموت قبل أن نموت لأنه ليس هناك سبب لكي نموت.

لكي لا تضيع القدس منا

عندما يتكلم هاني الحسن تشعر بالمنطق والعقلانية والوضوح والوطنية.

يقول:

الآن علينا معرفة دورنا بصورة جيدة، وأن نتوازن مع الإسرائيليين فنحن والأردن وسوريا ولبنان لا يساوي دخلنا القومي نصف الدخل القومي الإسرائيلي. علينا أن نتحالف مع الإخوة العرب، وعلينا أن ننشر الديمقراطية بين صفوفنا. عندما تُدرس المعارك الإسرائيلية نلاحظ أن 17 في المائة من ضحايا إسرائيل هم

من الكيبوتس، والمستوطنات ليست مؤشرا ايجابيا للحركة الصهيونية العلمانية لأنها موطن الصهيونية الدينية.

العالم الآن، وخاصة أوروبا يرفض موضوع السيطرة الإسرائيلية على القدس، حتى داخل أمريكا، ونحن إذا ملكنا إرادتنا واستنهضنا المجتمع الدولي وخاصة أمريكا وأوروبا واليابان والصين، فلن نضيع القدس منا.

أخلاق الرواد ومعدنهم النقي

كتب هاني الحسن:

عندما كنت طالبا في منتصف الثمانينيات، كنت متأثرا بنشأتي الدينية، وإلى جانب عملي للقضية الفلسطينية كنت متعلقا بموضوع الدين، وأمضي جزءا من وقتي بنشر الفكر الإسلامي، وفي أواسط الطلبة حولي. كان المدخل الأفضل لكسب الطلبة الجدد هو استقبالهم وتقديم مساعدات لهم ليجدوا السكن الملائم والتأقلم السريع.. كنت دائما أبحث عن الطلبة والعمال الفلسطينيين الغلابة أمثالي الباحثين عن العلم والعمل في نفس الوقت.. لأتواصل معهم وأضمهم إلى صفوف المناضلين من أجل فلسطين.

وأذكر من هؤلاء الذين شاركوني مشوار نضالي هايل عبد الحميد..

كان يأتي من الكلية لينام ساعات أربع ويدرس ثلاثا ثم يذهب للعمل ليلا في مصنع للشيكولاته، وتحت وطأة التعب والإرهاق وقلة من النوم يصطدم وجهه بجزء متحرك من آلة من آلات المصنع وينقل إلى المستشفى مغميا عليه ويتوقف عن العمل مؤقتا. زرته يومها بالمستشفى وأخبرته أني نقلت أمتعته إلى غرفتي ليوفر أجرة غرفته، وألمحت إليه كي لا أمس كبرياءه الحرون أننا سنتقاسم متاعب العيش معا.

بكى وعانقني معبرا عن اعتزازه بصداقتنا وأخوتنا.

هذه السطور القليلة تبين عن معدن اثنين من رواد الثورة الفلسطينية.. وهي في رمزيتها ودلالتها لا تحتاج إلى الألفاظ والكلمات.. فهي مزيد من الشفافية والنبل والمشاعر الصادقة.. لمسيرة رجلين.. لا يمكن أن نذكر أحدهما إلا ونتذكر الآخر.. هاني الحسن وهايل عبد الحميد.

الأصوات الباحثة عن أفق جديد

يقول هاني الحسن:

نحن جيل ما بعد النكبة.. الجيل الذي كان عليه أن يمسح عار الهزيمة ويحرر فلسطين.. وأصدق ما يعبر عن جيلنا تلك الصور الرائعة والأسلوب الشيق، الذي صاغ به تلك الصور غسان كنفاني.. لقد عرض بصدق وشفافية الحالة الفكرية والسياسية لجيل ما بعد النكبة في الخمسينيات، وهذه اللوحات الإنسانية المعبرة جعلت كلا منا يشعر وكأن غسان كنفاني يكتب عنه، ويصف معاناته، والمصاعب التي تخطيناها.

وأكبر مثال على ذلك إيمانه بالعلاقة بين السياسة والحياة المعيشية التي حكمت الفلسطينيين آنذاك والتي قال فيها:

"اللاجئون الفلسطينيون وجدوا، حتى صغارهم أن السياسة مفروضة عليهم بحكم واقع الأمور. عليهم أن يتعلموا حيث العلم وسيلتهم الوحيدة لتأمين وسيلة العيش، دخلوا الأحزاب العربية ظنا منهم أنهم

هناك سيعالجون قضية فقرهم المزوج بالذل، وينخرطون في مؤسسة يمارسون عبرها السير على طريق العودة الحالمة، ففوجئوا باليمين العربي يقول لهم: انسوا واقعكم الطبقي حتى نعيد لكم فلسطين.

والأحزاب اليسارية تقول لهم: انسوا فلسطين حتى تغيروا واقعكم الطبقي.

يقول هاني الحسن:

ولذلك راح الفلسطينيون يؤلفون الجمعيات السرية، وتحولوا إلى شعب مليء بالأصوات الباحثة عن الحق.

منذ أن كان طالبا في ألمانيا كان هاني الحسن مسكونا بفلسطين، وكان متفوقا في دراسته، سليل عائلة عريقة، يدعمه شقيقه خالد الحسن، وكان واحدا من كوكبة الرواد المناضلين في ألمانيا ومنهم عبد الله الإفرنجي، وهايل عبد الحميد، وغازي حنانيا، وعدنان سمارة، وشهد اتحاد طلبة فلسطين في ألمانيا نضالا وطنيا وقوميا متواصلا بفضل هذه النخبة الرائعة من الطلاب وفي طليعتهم هاني الحسن.

على خطى الثورة الجزائرية

منذ العام 1961 آمن هاني الحسن بأنه لا يجوز لفلسطين أن يهدأ في عالم ثائر، فيقف موقف المتأمل فقط في واقع مرير تشير مقدماته لهزيمة جديدة.

ويقول هاني الحسن:

كنت متمسكا بضرورة التربية الوطنية ذات المسحة الدينية، رافضا لفكرة حب الوطن والأرض وكفى، كان لا بد من العمل ومن هنا: ولدت فكرة منظمة طلائع العائدين.

بدأنا من منطقة في أواسط ألمانيا الغربية، نعمل بلا كلل أو ملل من أجل تنظيم 3500 طالبا وأكثر من 20 ألف عامل فلسطيني متخذين من تنظيم الثورة الجزائرية العظيمة خارج أرضها في أوروبا بالذات مثالا يحتذى.

ويواصل هاني الحسن عرض ذكرياته في مشوار نضاله الطويل الذي امتد اكثر من خمسين عاما فيقول:

لقد تمسكنا بالمبدأ القائل إن ما سيحسم النصر في النهاية؛ هو الحركة الجماهيرية المنظمة ذات البرنامج الواضح عسكريا وسياسيا. واعتمدنا فكرة تنظيم النخبة المطلق السرية المسيطر على النقابات العمالية والطلابية.. وهذه النقابات هي المزرعة المثالية لانتقاء أعضاء الخلايا التنظيمية والعسكرية.

رئيساً لفرع الطلاب في فرانكفورت

كان اتحاد طلبة فلسطين في ألمانيا شعلة من النشاط، بكل فروعه وفي مختلف المدن الألمانية.. وقد ترأس هاني الحسن فرع فرانكفورت ثلاث مرات متتالية عبر انتخابات ديمقراطية.

وكان طموح هاني الحسن أن تتحول الأفكار والمقولات إلى خطط عملية للكفاح المسلح.. ومن هنا ولدت فكرة (منظمة طلائع العائدين). وقد كانت هذه المنظمة غنية بالطموح والحماس ولكنها فقيرة في المال، وكانت قيادتها مكونة من كتلة متجانسة متعددة المواهب، فمنها من عنده حساسية تنفيذ الأفكار الكفاحية، ومنها من هو قادر على فهم أسس وقواعد ونظريات الانطلاق، أي أن هناك من هو قلب الكفاح وهناك من هو عقله.

دماء جديدة للمد الثوري

وتصادف وصول دفعة جديدة من الطلاب احتوت على شباب ولدوا للنضال والمجابهة. فمنهم من تعمد بالنار في غزة، أثناء احتلالها عام 1956، ومنهم من تعمد بالنار في صدامات الضفة الغربية مع القوات الخاصة الإسرائيلية.

يقول هاني الحسن:

وأعطى أولئك الفتية الجدد زخما قويا لمخطط المنظمة السري، فالبدوي ابن بئر السبع عبد الله الإفرنجي المسلح بإيمان فلسطيني لا يغلب، والذي تعلم من البداوة أنه إذا ما هوجمت القبيلة فعليه أن يتقدم ولو وحده ليواجه الذئاب المهاجمة.

وأمين الهندي الشاب الأسمر الذي تواضعه وحياؤه يكادان يخفيان مزاياه الكثيرة، ونبيل نصار ذلك العقل المفكر والمنظم وآخرون كثيرون.

قد استطاع هاني الحسن ورفاقه أن يوسعوا دائرة العمل وأن ينشروا فروع اتحاد عام طلبة فلسطين المعترف بها في ألمانيا حتى تبلغ ثلاثة عشر فرعا في شتى المدن الألمانية. ولم يكتفِ هاني الحسن ورفاقه بذلك بل إنهم بدؤوا العمل السري الذي أخذ يولد قواعده وتسلسله الهرمي وكان ذلك التسلسل يشكل وقتها بنية متفوقة من حيث المثالية والإخلاص للقضية الفلسطينية ووحدة الفكر والتوجيه عبر مجلة "العودة" النصف شهرية والتي كان يصدرها مركز كونفدرالية ألمانيا لاتحاد الطلبة الفلسطينيين.

بعيداً عن الفردية قريبا من الديمقراطية

كان هاني الحسن من الرواد في هذا العمل الوطني الخلاق في ألمانيا، وكان يحتل مركز قياديا ولكن رفاق العمل كانوا يخططون لكي تسري الروح الديمقراطية في تنظيمهم. وكانوا يريدون تكريس القيادة الجماعية، وكانوا على علم بخطورة نشوء مراكز القوى ذات السلطة.

يقول هاني الحسن:

وبعد جدال طويل اتفقنا على أهمية ديمقراطية الرأي والحوار، ودكتاتورية التنفيذ، على أن لا يسمح لواحد منا أن يقوم هو وحده بكل شيء كي لا يتعلم هو الفردية، ويتعلم الآخرون التواكل والاتكال والدونية. ومن ثمّ التفرق والتفتت. ورسمنا خطة لنشر أفكار محددة في الأواسط الطلابية والعمالية لتعبئتهم، فالفلسطيني لم يخلق ليهرب، والعمل البطولي الفذ هو ألا تهرب بل تقاتل بالقوة التي تملك. وحيث لا يوجد شعب مسلح ومنظم لا توجد قوة، وحيث لا توجد قوة توجد الهزيمة.

وعلى ضوء هذه الخطة استقلت من رئاسة الاتحاد على أن أشغل منصب نائب الرئيس ولكن بمشاركة واسعة من الكوادر الجديدة وبتواضع شديد وحب وشفافية ولن أنسى ذلك اليوم الذي فرض عليّ التنظيم.

هاني الحسن في غزة هاشم

ولعل هذه الحادثة تضع أمامنا أوراق هاني الحسن، وتبين عن شخصيته. فهو لا يسعى للرئاسة، ولا يطلب المجد الشخصي، وإنما هو فرد في مجموعة يمتثل لما تمليه القيادة الجماعية، فيتنازل عن الرئاسة التي وصل إليها بطرق ديمقراطية دون شعور بالحزب والإحباط.

لقد كان قائدا فذا من طينة جبلت بالنقاء والضوء والسمو.. وكان دائما يردد مقولة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ليس الزهد ألا تملك شيئا، وإنما الزهد ألا يمتلكك شيء".

في عام 1963 توجهنا واحد وعشرون ممثلا لفروع اتحاد طلبة فلسطين في أوروبا إلى غزة لحضور المؤتمر الثالث للاتحاد، وكنا جميعا ما عدا قومي عربي واحد من فتح نؤمن بنفس الأفكار ونلتزم بتوجهات مركزية، وقد تم انتخابي رئيسا للمؤتمر الذي افتتحه كمال رفعت ممثلا للرئيس جمال عبد الناصر وبحضور جمهور غفير من أهالي غزة الذين جاءوا معتزين بأبنائهم الجامعيين متلهفين إلى سماع صوتهم المتمسك بالوطن.

هل فهمت..؟ تحرك

يقول هاني الحسن في معرض ذكرياته عن تلك الفترة من تاريخ الثورة الفلسطينية:

أخذنا زمام المبادرة، ووزعنا أعدادا من مجلة "العودة" المحتوية على تحليلات ثورية على نطاق واسع ووضعنا بداخلها ورقة معدة سلفا طبع عليها:

أخي الطالب

شعبنا بحاجة إلى علمك لذلك ادرس.

شعبنا بحاجة إلى قوتك لذلك نظّم.

شعبنا بحاجة إلى حماسك لذلك حرّض.

نتقدم ونستشهد، خير من أن نتوقف ونموت.

الطريق إلى النصر.. التنظيم والبندقية هل فهمت؟

تحرك.

وبدأت الأنظار تتجه إلى أولئك القادمين من الخارج غير آبهين بسلطة أو عابئين بضغط.

المهم لقد تحقق في ذلك المؤتمر على ارض غزة الحصول على شرعية الخط السياسي الذي دعت إليه فروع الاتحاد القادمة من أوروبا.

أولئك الذين تعلموا من احتكاكهم بالطلبة الأوروبيين احترام الشرعية، ورأي الأغلبية مع حق المعارضة بكل الوسائل الشرعية، كي يصبح رأيهم هو رأي الأغلبية.

ويستذكر هاني الحسن.. أنه في ذلك المؤتمر التقى الشهيد أبو صبري يقول:

"كرر لنا الشهيد أبو صبري الدعوة لزيارة الكويت للتباحث مع قادة حركة فتح حول توحيد الطاقات الفلسطينية بالانضواء تحت رايتها، وحدثنا بطل التجرد والتفاني الشهيد أبو صبري عن خططه هو ومجموعة من المعلمين الفلسطينيين للتوجه إلى الجزائر للتدرب على السلاح حيث أن تفجير الثورة المسلحة يجري الإعداد له بدأب وجدية.

اللقاء مع القادة في الكويت

يقول هاني الحسن:

أرسل إليّ أبو السعيد تأشيرة دخول إلى الكويت، فالتقيت هناك بعدد من قادة فتح الأوائل وعلى رأسهم أمير الشهداء القائد الرمز أبو جهاد، أول الرصاص وأول الحجارة، ومن موقع الإعجاب بما جرى في مؤتمر

طلاب الجامعيين في غزة وتثمينهم لقرار الكفاح المسلح، ألحوا على أهمية التوحد، فالثورة الفلسطينية وشيكة الحدوث والبحث في موعد الانطلاقة يجري دراسته.

شاهد على العصر

إنني أقدم هذه السطور للحقيقة والتاريخ، وشهادتي مأخوذة حرفيا من أقوال الصديق الراحل هاني الحسن. وأنا هنا لا أوزع الأدوار ولا أصحح التاريخ ولا أقرر أين كانت الريادة، ومن الذي بادر ومن اتبع ومن الذي ابتدع ومن الذي قلد.

إن كل ذلك غير وارد في حسابي.. لقد كنت شاهدة على هذه التفاصيل وكنت على علم بها، وبحقيقتها، بحكم العلاقات العائلية والأسرية مع من يرويها ويقدمها للتاريخ الصديق الراحل هاني الحسن.

وبكل موضوعية ونزاهة فإن طلبة فلسطين الدارسين في ألمانيا، كانوا طليعة ثورية مناضلة رائدة، وقد أدهشني أن أوروبا بكل ما فيها من مغريات وفرص للهو واللعب والانحراف، لم تؤثر فيهم ولم تنل من قيمهم ووجدانهم، ولم تدفعهم بعيدا عن خندق النضال من أجل فلسطين.

أبو صبر وهاني جرح واحد وهدف واحد

وهذه الحقيقة تتأكد اليوم من شهادة الراحل العزيز هاني الحسن ابن مدينة حيفا وصديق الأسرة والعائلة، أنه بكل صراحة وموضوعية وصدق يضع الحقائق أمامنا دون استعراض أو زهو أو رغبة في الأضواء والشهرة والمحصلة التي سجلها التاريخ تؤكد أن توافقا رائعا جرى بين هاني الحسن وممدوح صيدم ولا عجب فإن الثائر الحقيقي المخلص الذي وهب روحه وحياته من أجل بلاده لا بد أن يلتقي مع صنوه ورفيق في الكفاح، فالجرح واحد والألم واحد والوطن واحد وفلسطين المكلومة جديرة بأن توحد كل الثائرين الصادقين الأبطال.

مواقف وقضايا وإضاءات

وفي مسيرة الراحل العظيم مواقف لا تنسى ولعل من أهمها أنه كان أول سفير لفلسطين في إيران حيث استقبله الخميني في طهران، ونتيجة المساعي التي قام بها هاني الحسن أمر الخميني بطرد السفير الإسرائيلي وإغلاق السفارة الإسرائيلية في طهران وتم تسليمها إلى السفير الفلسطيني باعتبارها سفارة فلسطينية مقدمة كهدية من الزعيم الإيراني الخميني إلى الرئيس ياسر عرفات.

أذكر أن لهاني الحسن مواقف رائعة مع الرئيس أبو عمار في فترة الحصار المعروفة. فقد تقاسم تلك الأيام الصعبة مع الرئيس وعاش لحظات الحصار دقيقة بدقيقة وتعرض للموت كما تعرض له كل من كان في الحصار. وما أن انتهى الحصار حتى أسرعت لالتقية في حوار صحفي حول دقائق وخبايا ذلك الحصار. وكان كعادته قديرا في شرح وتفصيل كل ما حدث.

وكان من دعاة المقاومة ورفض الهزيمة، وعبر مكالمة هاتفية جرت بين أبو عمار وأحد قيادات الدول الخليجية تدخل أبو طارق وامسك بسماعة الهاتف وقال:

سيدي نحن إذا أردنا أن نستسلم ونفاوض فلا نحتاج إلى وساطة أحد، نستطيع أن نخرج رافعين الراية البيضاء أو نعلن الاستسلام بطريقة أو بأخرى ولكننا لا ولن نستسلم.

ومما أذكره من مواقف الراحل العزيز إشارته بأصابع الاتهام إلى السلطات الإسرائيلية في اغتيال الرئيس بصورة حاسمة حتى قبل ذلك التقرير الذي نشرته "الجزيرة" مؤخرا.

(2012/7/13)

هايل عبد الحميد

نظم مئات الخلايا لفتح في دمشق والقاهرة

بدعم من جمال عبد الناصر ومحمد حسنين هيكل

اشتعلت حرب 67 فقاد أبو الهول قوة من فتح تصدت للمظليين الإسرائيليين

في "سعسع" وسقط جريحاً

حوصرت قواتنا في طرابلس برا وبحرا فاخترق أبو الهول الحصار

وتخطى حواجز الموت والتحق بالمحاصرين

أنقذ حياة أبو مازن من اغتيال محقق

واستولى على أخطر وأدق جهاز تجسس يستخدمه العدو

يرتبط رحيل المناضل الشجاع هايل عبد الحميد "أبو الهول" وصديقه القائد الفذ صلاح خلف باسم العنصر المنشق (صبري البنا).

فعندما تم اغتيال هايل عبد الحميد وصلاح خلف والكادر أبو محمد قبيل اندلاع حرب الخليج الأولى بيومين في عام 1991 ارتبط هذا الحادث المأساوي باسم صبري البنا.

وصبري البنا الاسم الحقيقي لأبو نضال.. فقد كان من أهم القيادات الشابة الملتزمة في حركة فتح. ثم انشق عن الحركة وتمرد عليها وأصبحت علاقاته وثيقة وحميمة مع الأجهزة الاستخباراتية العربية التي عملت على تجنيده والاستفادة منه حسب أجندتها الخاصة.

وكان في طليعة اهتماماتها العمل ضد ياسر عرفات، وحركة فتح، ومنظمة التحرير.

في ذلك اليوم الحزين الذي أصاب الشعب الفلسطيني والأمة العربية بالصدمة والذهول والحسرة والألم عندما استشهد في العاصمة التونسية الزعماء الثلاثة وهم من كبار قادة الثورة الفلسطينية:

صلاح خلف (أبو إياد)

هايل عبد الحميد (أبو الهول)

فخري العمري

لقد قام شاب فلسطيني اسمه "حمزة" كان يعمل مع السيد هايل عبد الحميد رئيس المخابرات الفلسطينية في طاقم الحراسة. ولا أدري كيف استطاع أبو نضال أن يدخل ويخترق تنظيم حركة فتح، وأن يخترق أمن أهم رجلين في أهم وأقوى تنظيم فلسطيني في تاريخ الثورة الفلسطينية وهما أبو إياد وأبو الهول.

كان أبو إياد الهدف الأول لمؤامرات ومخططات أبو نضال فقد كان يرى أن صلاح خلف هو الرجل الذي وضع خطة إستراتيجية ضد أعمال أبو نضال الذي كان يغتال القادة الفلسطينيين في العالم ويعمل على تصفيتهم في أوروبا ومنهم عصام سرطاوي، عز الدين قلق، سعيد حمامي، نعيم خضر وآخرون.

لا ينفع حذر مع قدر

وعندما كنا نزوره، كان منزله الأكثر أمانا والأكثر احتياطا. فقد كان صلاح خلف حريصا على أمنه لأنه يعرف أن إسرائيل وأبو نضال يعتبرانه واحدا من أهم أهدافهم ويصران على التخلص من العقل الاستخباراتي الذي يتمتع بأكبر شبكة اتصالات استخباراتية مع كل دول العالم.

وقد صادف ذلك بدء هجوم القوات الأمريكية على القوات العراقية المتواجدة في الكويت، وكان أبو إياد "صلاح خلف" يزور أبو الهول في بيته في تونس. وكان قد حضر بسيارته المصفحة ومعه كل الحراسات الأمنية كعادته، عندما يتحرك. وكان دائما حذرا، وكان معه أبو محمد العمري، أحد المسؤولين الأمنيين، الذي كان بمثابة اليد اليمنى له. كانت السيارة متوجهة إلى منزل هايل عبد الحميد "أبو الهول" في ضاحية قرطاج، على غير موعد مع أبو الهول، فقد كان من عادة أبو إياد أن يلجأ إلى لحظات قيلولة للاستراحة ولكنه في ذلك اليوم أخذ قرارا بعدم النوم، وذهب إلى مقابلة هايل عبد الحميد بدون أي تحضيرات ولم يكن يعرف أنه كان في ذلك اليوم على موعد مع القدر برفقة القادة الثلاثة.

وبينما كان القادة الثلاثة يتبادلون الحديث في الصالون الواسع الواقع في الطابق الأول دخل فجأة أحد الحراس إلى غرفة الجلوس التي كانت في الطابق الأرضي للفيلا. ومن ثم دخل غرفة الصالون الواسع ووقف وشهر بندقيته على أبو إياد، ولكن أبو الهول وفخري العمري وقفا أمامه ليمنعاه من تسديد وإشهار السلاح على أبو إياد، فما كان من الرجل المسلح إلا أن فتح النار على هايل عبد الحميد وعلى فخري العمري وعلى أبو إياد، ومن ثم توجه فورا إلى الطابق الثاني في البيت الذي كان يعرفه جيداً، حيث كانت نادرة زوجة أبو الهول مع ابنتيه الاثنتين.

ثلاث فلسطينيات في مواجهة مع الموت

وكانت ليلة الرعب قد ابتدأت في حياتهم، وهي تفوق في هولها أية أفلام رعب أخرى، كانت نادرة وابنتاها قد سمعن الطلقات النارية في الطابق الأول من البيت ولم يعرفن شيئا عن المأساة، وعن موت زوجها ورفاقه، ولم تعِ نادرة حقيقة ما حدث، ولكن الرعب سيطر عليها بسبب سماعها الطلقات النارية في البيت. وعندما فتح القاتل حمزة غرفة النوم حيث كانت نادرة وابنتاها يمسكن ببعضهن، وكانت نادرة تضم ابنتيها دخل القاتل حمزة بالكلاشينكوف وأخذ يهدد نادرة ويتوعد بقتلها هي وابنتيها.

كان الجو مشحونا بالرعب، وكانت نادرة وابنتاها يتلون الآيات القرآنية ويتضرعون إلى الله حتى لا يقتلهم ذلك المسلح الذي كان يصوب سلاحه نحوهم ويهددهم بطلقاته النارية. كانوا يصلون لله أن يتركهم ذلك المسلح وأخذوا يتضرعون إلى الله لينقذ حياتهم. عندما خلع حمزة باب الغرفة لم يترك مكانا للشفقة ولا للرحمة ولا أملا للحياة.

عندما مسك بنادرة وابنتيها وجرهن إلى الموت.. إلى المصير المحتوم.. إلى حتفهما.. في هذه اللحظات تذكرت نادرة زوجة أبو الهول كلمات الرئيس عرفات وتحذيراته لزوجها الذي لم يستمع لنصيحة أبو عمار، وتحذيراته وسمح لهذا الثعبان أن يعشش في بيته.

كان أبو عمار بحسه المميز.. (الحاسة السادسة) عنده وهي التي أنقذته في حياته عشرات المرات من الموت ومن المصير المجهول. ومن وحي هذه الحاسة قال عرفات لأبو الهول:

- إياك أن تسترجع حمزة لأنه قد خانك مرة، وذهب إلى أحضان أبو نضال، فالمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، يجب أن لا تثق به، وأرجوك أن تبعده عن منظمة التحرير وأعضائها. ولكن أبو الهول لم يستمع إلى نصائح أبو عمار، واعتقد أن حمزة قد تاب وتراجع عن خيانته، فاحتضنه وأرجعه عنده في بيته ومع أولاده، وعامله كابنه.

أصعب عشر ساعات في حياتي

كنت أنا في واشنطن وكنا نتابع بأعصاب مشدودة هذه التراجيديا، ومكثت نادرة مع ابنتيها والمسلح القاتل لزوجها ورفاقه لمدة عشر ساعات.. كان العالم كله مشدودا إلى هذه المأساة، وكانت الشرطة التونسية وقوات الوحدات الخاصة قد حاورت القاتل لمدة عشر ساعات، ومن ثم دخلت القوات التونسية الخاصة واقتحمت البيت مثل الأشباح وبعبقرية فائقة أنقذت الزوجه وبنتيها.

لقد بكيت دمعا حارا، بكيت القادة الكبار الذين صنعوا التاريخ والكبرياء والمجد لامتنا وشعوبنا.. بكيت معاناة نادرة التي فقدت زوجها ورفاقه، وتحملت التهديد والرعب والموت قريبا منها، ومن بناتها، ورأت أمامها الجثث الثلاثة وهي في بحر من الدماء.

بكيت على هذه المأساة وكنت أدعو الله أن يحمي نادرة الصديقة العزيزة، ابنة بلدي نابلس، نادرة حلمي الشخشير الأستاذة المثقفة الرائعة بأدبها وأخلاقها، كانت دائما لطيفة هي وزوجها مع حمزة، ولم تعرف يوما أنه سيكون قاتل زوجها ورفاقه، وأنه سيختطفها مع بناتها ويهددهن بالقتل هي وبناتها.

كانت أعين العالم مع نادرة.. وكنا نصلي لكي لا يقتل المجرم حمزة نادرة وبناتها، إلى أن اقتحمت قوات الأمن التونسية في هذه الليلة الظلماء البيت وهاجمت حمزة مثل أشباح الليل حيث طوقت المنطقة في قرطاج وأنقذت المرأة وبنتيها وألقت القبض على القاتل.

وكان هايل عبد الحميد واحدا منهم

ويعتبر هايل عبد الحميد "أبو الهول" واحدا من أولئك الصفوة الذين كلما تأملت في تفاصيل حياتهم، ازددت إيمانا بأنني أحيا في أمة قادرة على أن تنجب المنارات القيادية الفكرية والإنسانية والنضالية الرفيعة.

هايل عبد الحميد.. واحد من تلك القلة التي ملأت وجداني وحواسي وعقلي وفكري بمشاعر البطولة والفداء، والمعاني السامية النبيلة، ودعوني أصارحكم.. إن ما يشدني إلى أي شخصية ليست كمية الشجاعة والبطولة والمغامرة والروح الفدائية الجسورة المقاتلة.. فتلك صفات نصادفها في ملايين البشر، أن ما يرهف وجداني ويحرك الدموع في عينيّ ويهز كل مشاعري ويشعل في قلبي خفقات الوجد والتعاطف والوصال والشجن هو المواقف الشجاعة الممزوجة بشذا الإنسانية.

وليس معنى ذلك أني ألهث وراء عواطف سطحية، وأستجدي مواقف رومانسية تقليدية شاحبة ممزوجة بالضعف والهوان والابتذال.

كلا، إنني أنشد القوة في الشخصية.. تلك القوة التي تجمع بين الصلابة والعنفوان، والأصالة والثبات، وبين رقة المشاعر والأحاسيس، وخفقات القلب الإنساني الوديع الذي يكاد يأخذ الإنسانية بين أحضانه.. الإنسانية بكل ما فيها من آلام، وعذابات، ودموع وأشجان بعيدا عن الأنانية والفردية والنرجسية وعوامل الجشع والمادية.

وبحكم مشاركتي في الحياة السياسية للثورة الفلسطينية قدر لي أن ألتقي بهذه النماذج الرائعة من أبناء وطني ولعل من أهمهم:

* ياسر عرفات
* صلاح خلف
* جورج حبش
* خليل الوزير
* ماجد أبو شرار
* محمود عباس
* حسيب صباغ
* هايل عبد الحميد

قدر أحمق الخطى

في يوم ماطر من أيام شتاء عام 1937 ولد هايل عبد الحميد في مدينة صفد المترعة على جبل الجرمق، لأب اسمه رضا طه عبد الحميد.

وكان الصبي هايل يحضر مجالس الكبار مع عمه، فقد كان ذا نضج مبكر، وكان يتفحص الحاضرين بنظرة صادقة. وقد عاش أبو الهول حياة المعاناة منذ الصغر، فقد اختطف الموت أباه وهو لم يبلغ العاشرة من عمره، ومن ثم ذهبت الأم إلى غزة حيث تزوجت هناك. وتركت مروان وفريال وهايل في رعاية عمهم، لكن هايل أدرك منذ طفولته وصباه أن عليه أن يتخطى مشاعر اليتم، وأن عليه أن يقف على رجليه ليحمي أخاه وأخته في معركة الحياة.

ويستعرض هاني الحسن تلك المرحلة من حياة صديق عمره هايل فيقول: كانت نزعة اليتم تسيطر عليه وتبدو محسوسة بالصور والذكريات تتدافع في عينيه المغرورقتين بدمع أبكم عندما يتحدث عن أمه

التي لم يشاهدها منذ أن فارقته، عندما ذهبت لتقيم في غزة مع زوجها الثاني ولكنه عندما حاول أن يلتحق بها أعادوه من المطار ليقولوا له إن أمه حبه الخالد قد اختطفها الموت.

المحن تصقل الرجال وتنقي معادنهم

وبالرغم من قسوة الحياة وضراوة العيش وحصار الحزن والشجن كان الصبي هايل يزداد صلابة ووعيا وقوة، وأخذ تدريجيا مع ازدياد وعيه يرمي خلفه مشاعر اليتم، ليصبح فتى متوازنا في انفعالاته ونفسيته، عظيم الثقة بنفسه ذا قوى ذاتية كفيلة بتأمين مكان لائق له تحت الشمس، حيث تغلبت نزعة الكائن الاجتماعي التي تتنافى والانعزال ونزعة المنظم الجماهيري التي ولدت معه، فرسمت له مصيره والمنحنى الذي سيتحكم فيه طيلة حياته وهو العيش وسط اللاجئين الفلسطينيين وخدمتهم.

سنوات الجمر والتحدي

ويستذكر شقيقه مروان تلك السنوات الصعبة من حياة أخيه فيقول:

في صيف عام 1948 كنا في صفد وكان أخي هايل في الثانية عشرة من عمره، وكنت أصغره بأربع سنوات. كنا طفلين يواجهان المصير الذي قرره الكبار، وكان منزل العائلة الواسع ملاصقا للسرايا في صفد ومطلا على الساحة العامة. حيث تجري الاحتفالات، وتنصب المراجيح والألعاب وتباع الحلوى.

وكان جيش الإنقاذ قد وصل إلى صفد وعلى رأسه ضابط سوري يدعى إحسان كملماظ، ومن ثم انضم إليه ضابط أردني اسمه ساري، وطلب العسكر الوافدون للإنقاذ إخلاء البلدة حتى لا تقع ضحايا بين المدنيين، وقد عارض الأهالي هذا الاقتراح.

وتم الاتفاق أخيرا على ترحيل الصبيان ممن هم دون الثانية عشرة، مقابل أن يفتح جيش الإنقاذ صفوفه لاستيعاب من هم في الثالثة عشرة فما فوق.

كان هايل يومها في الثانية عشرة ولكنه لم يتمها، فلم تكن أمامه فرصة للبقاء في البلدة، وقد ساءه ذلك كثيرا، فأخذ يبكي ويصرخ مطالبا بأن يبقى في صفد لمقاتلة المعتدين، ولكن عاصفة الرحيل شملته، فرحلنا.. ضمن من رحلوا، وبقيت اختنا الصغيرة فريال في البيت مع الأسرة.

وبدأت رحلة الخروج من البلد باتجاه دمشق. ويواصل أبو سامر سرد ذكرياته عن سنوات الجمر والتحدي في حياة شقيقه المناضل الكبير فيقول: "كان والدنا رحمه الله أكبر إخوته، وكان ممن شاركوا في ثورة عز الدين القسام عام 1936، ولكنه لم يلبث أن توفي بمرض القرحة عام 1942، وخلفنا نحن أبناءه الثلاثة: هايل وفريال ومروان.

وكان جدي لأمي وهو قاضٍ في صفد قد زوجها لصديق له هو الشيخ عمر صوان وهو عالم دين معترف به بالفضل، وكان رئيسا لبلدية غزة. ففارقتنا الوالدة التي التحقت بزوجها وبقينا تحت رعاية أعمامنا.

طفولة معذبة ويتم مزدوج

منذ أن غادرتنا الوالدة منذ عام 1947، لم نرها إلا مرة واحدة في عمان عام 1955.

لقد تعذبنا بفراقها وحرمنا من حنانها ثماني سنوات متواصلة، وقد التقينا في عمان عندما جاءت من غزة لتحضر عرس قريب لنا. نحن الذين جئنا في المناسبة ذاتها. في هذا اللقاء تعرفت إلى أربعة إخوة لنا، لم نكن نعرفهم، وكان لقاء يصعب وصفه، وكان هايل شديد التأثر بهذا اللقاء. كان فرحا، وكان حزينا، امتزجت الحلاوة والمرارة في روحه فاللقاء يتم بعد فراق طويل وكان جميلا لكنه مزيج من الألم والمشاعر الفياضة.

لقد ضمنا لقاء عمان هذا شهرا واحدا ثم جاءت ساعة الفراق ليذهب كل منا إلى شأن مختلف وظروف لا تشبه الظروف وخلق هذا الوداع جرحا عميقا في نفس هايل قد لا يلتئم بعد سنوات وسنوات.

هايل يلغي طفولته في وقت مبكر

كان عمي وائل يحسن رعايتنا، فعشنا بين أبنائه كأعز الأبناء، غير أن هايل ظهر كأب لنا فريال وأنا منذ البداية فصار الولد الذي فقد الأب أبا لأخويه الأصغر منه. وقد تعودنا أن نعود إليه في كل شيء، وأن نتلقى توجيهاته، وهكذا ألغى هايل طفولته وتصدى لتحمل مسؤولية طفلين.

لقد نشأ رجلا قبل أن يبلغ سن الرجال.

خطوات للبحث عن الخلاص

منذ أن كان هايل طالبا في المدرسة الثانوية وربما قبل ذلك كان كل تفكيره، وعواطفه تتجه إلى البحث عن الخلاص، كان دائم التفكير في الأسلوب الذي يجب أن يتبعه ليستطيع آن يعود الى صفد وليطرد الغاصب المحتل.

وحول هذه البدايات المبكرة يروي الرئيس أبو مازن قصة لقائه الأول بهايل عبد الحميد فيقول:

في عام 1954 وكنا في ذلك الحين بين مقاعد الدراسة والعمل أو نجمع بينهما، التقيت لأول مرة الشاب اليافع والذي لم يصل سن العشرين بعد فقد كان طالبا في المدرسة الثانوية الاخ هايل عبد الحميد. كنت يومها لا أعرفه مع أننا من مدينة واحدة. فلم يكن زميلا في المدرسة.

كان أصغر مني وجاء في ذلك اليوم مع اثنين من أصدقائه.

كان واضحا من الزيارة أنها ليست ذات طابع اجتماعي فقط. وبعد السؤال عن الصحة والأهل دخل إلى صلب الموضوع فقال:

مضت علينا ست سنوات ونحن في الغربة ننتظر الفرج، ولم يأتِ، ومن أين سيأتي. إنهم لم يفعلوا لنا شيئا ما لم نفعل نحن لأنفسنا. فماذا نفعل وكيف نتصرف؟

كانت هذه الجمل القصيرة ذات دلالة هامة فقد وصل هذا الشاب الى كبد الحقيقة التي لم يصل اليها من هم أكبر منه سنا وأعمق تجربة وخبرة.

كانت هذه اللغة مستهجنة في عقد الخمسينيات ومطلع الستينيات لأن الجميع كانوا يجلسون إلى الإذاعات ويبحثون بين سطور الصحف عن أمل يمكن أن يعيدهم إلى وطنهم في حين أن القيادات في تلك الفترة كانت منصرفة تماما، ولا عجب فكل منهم يدّعي وصلا بليلى. كان هايل عبد الحميد يدعو إلى أن يأخذ الفلسطيني زمام المبادرة بيده وهذا ما هدته إليه فطرته وحسه المرهف فلم يتوصل إلى هذه الحقيقة من الكتب أو القراءات فقد كان أصغر بكثير من أن يستنتج النظريات والأيديولوجيات من الكتب. كانت فطرته

وحسه الوطني المرهف هي التي دفعته إلى أن يتحمل الفلسطينيون مسؤولية تحرير وطنهم دون الاعتماد على الآخرين.

أين يذهب أبو الهول

ويعرض الرئيس أبو مازن لمحات إنسانية من حياة هايل عبد الحميد فيقول:

كان زيارات هايل قليلة، بل نادرة إلى دمشق لأنه في الأساس كان قلما يغادر بيروت فالوقت كان هناك بالنسبة له مستغرقا تماما، ولكنه في المرات القليلة التي كان يأتي فيها إلى دمشق لعمل أو لقاء أو اجتماع، كنا نفتقده لعدة ساعات بعد وصوله مباشرة وكنا نتساءل:

أين اختفى؟

ولماذا اختفى؟

لنكتشف أنه بمجرد وصوله ينتقل فورا إلى بيت شقيقته فريال المقيمة في دمشق والتي لها منزل الوالدة عنده، والتي عوضته حنان الوالدة وحب الوالد حيث توفي والده في فترة مبكرة من حياته وانتقلت والدته لتعيش في مكان بعيد، فقد عاش أبو الهول حياة يتم مزدوجة وكان يجد في شقيقته كل حب وحنان وعطف الوالدين اللذين افتقدهما.

قراءات ذات دلالة خاصة

من الأمور التي تخفى على الكثيرين أن هايل عبد الحميد كان مولعا بقراءة نوعين من القراءات. فقد كان يحرص دائما على قراءة القرآن بطريقة فريدة تساعده على الحفظ الصحيح لآيات القرآن وذلك بأنه كان يشتري أشرطة مسجلا عليها كل أجزاء القرآن الكريم، فكان يستمع إلى المسجل في الوقت الذي يتابع النظر إلى النصوص، كان إحساسه بان ثقافته الدينية لم تكن في المستوى المناسب بفعل المناهج التي تلقاها في فترة دراسته في المدارس الابتدائية والثانوية ما دفعه إلى هذه القراءة الفريدة للقرآن الكريم.

أما النوع الثاني من القراءات فقد كان يهتم بقراءة مذكرات وسير الشخصيات السياسية والأدبية العربية والعالمية، وذلك ليتعلم من سيرة هؤلاء وليكتسب خبرات وتجارب ورؤى وليطلع على التاريخ وخاصة التاريخ الحديث، والتراجم وكتب السيرة مصدر خصب للمعلومات والأفكار، ولهذا لم يكن يسمع بأن مذكرات زعيم ما أو شخصية ما قد طبعت حتى يهرع إلى المكتبات لشرائها والاحتفاظ بها وقراءتها حيث كان يرى أن مثل هذه المذكرات فيها من التجارب والخبرات الشخصية ما يفيد الإنسان ويثري معارفه وعقله ووجدانه.

آسف فلم يكن تعارفنا في مقهى

عندما وقع الانشقاق في فتح، كان هايل عبد الحميد في دمشق يبذل مجهودا جبارا لاحتواء هذا الشرخ وإعادة الوحدة إلى حركة فتح.

ومن هذا المنطلق ذهب لزيارة مهدي بسيسو "أبو علي" أحد قادة فتح المعروفين، وكان هايل يقوم بمحاولة أخيرة ليثني صديقه عن الانضمام إلى المنشقين.

وكان مهدي عزيز جدا على هايل بحكم الصداقة التي تربط بينهما وكان يحبه حبا خاصا ويحتفظ به بمكانة حميمة في قلبه. ومن المعروف أن هايل لعب دورا أساسيا في تحرير مهدي من سجون إسرائيل فقد

بادله بأسيرة يهودية هي جاسوسة مهمة ألقي القبض عليها في بيروت. ويعلق على تفاصيل هذه الحادثة مروان شقيق هايل فيقول:

لقد حدثني هايل عن نتائج محاولاته مع أبو علي وهو حزين فقال: لقد رفض أبو علي دعوتي إلى الامتناع عن الالتحاق بالمنشقين ولما تبين لي أنه ماضٍ في طريق آخر عرض على أبو الهول أن يحافظ على العلاقات الشخصية بينهما بالرغم من الخلاف، ولأن الأمر ليس مجرد انشقاق بل أمر عمل جاد فإن هايل رفض هذا العرض وقال لمهدي:

- نحن لم نتعرف إلى بعض في مقهى بل تعارفنا في خندق الثورة.

مع تيسير قبعة كل شيء يهون من أجل فلسطين

يقول تيسير قبعة عن أبو الهول:

"إنني أقول بكل أمانة وراحة ضمير إنه واحد من راسمي معالم المرحلة التي انتقل فيها الشعب الفلسطيني من الركود الذي أعقب نكبة 1948 إلى النهوض الذي توجته الثورة الفلسطينية المعاصرة.

كان تيسير قبعة وهايل عبد الحميد وشريف الحسيني قد بادروا إلى عقد ندوة عالمية حول فلسطين في القاهرة، حضرتها شخصيات كبرى من البلاد العربية ومختلف أنحاء العالم حتى بلغ عدد المشاركين فيها قرابة الألف، وكان تنظيم هذه الندوة يتطلب نفقات كثيرة فتشاورنا مع الهول ووضعنا خطة لتأمين مبلغ اثني عشر ألف دينار، ولم يكن اتحاد الطلبة يملك أكثر من ثلاثمائة جنيه مصري، فأرسلنا موسى الحسيني إلى الكويت إلا أن أمير الكويت رفض التبرع بأي شيء، بل رفض دفع ثمن تذكرة مبعوثنا على أساس أنه يدفع لمنظمة التحرير. واقترح أبو الهول أن نجمع التبرعات من أبناء شعبنا في غزة. وكان على ثقة بان الجمهور الفلسطيني سيلبي دعوتنا إلى التبرع عندما يعرف هدف الندوة وأهميتها.

وهكذا أرسلنا وفدا ضم فيصل الحسيني وجهاد حسن سلامة إلى غزة. واستقبل الوفد حيدر عبد الشافي وجمال الصوراني، وتجول الوفد في أرجاء القطاع وزار الطلبة في المدارس وغادر ومعه خمسة عشر ألف دينار وكيس بلاستيكي حوى ما تبرعت به طالبات المدارس من أقراط وخواتم ذهبية.

وأثناء وجود الوفد في غزة أرسلنا إلى أمير الكويت برقية قلنا له فيها: "إن طلبة فلسطين وشعبنا لن ينسوا موقفكم المتخاذل من ندوة فلسطين العالمية". وبعد أسبوعين جاء سفير الكويت في القاهرة بنفسه إلى مقر الاتحاد العام وقدم تبرعا بعشرة آلاف جنيه إسترليني عززنا فيها ميزانية اتحادنا.

القيادة سلوك ومبادرة

عندما وقعت حرب عام 1967 كان أبو الهول في سوريا فقد دعي للعمل مع قادة الأقاليم هناك لترتيب أوضاع الإقليم التنظيمية والاستفادة من خبرته في هذا المجال. وما أن اندلعت الحرب حتى قاد هايل عبد الحميد مجموعة من مقاتلي فتح، حملهم باص توجه بهم إلى منطقة "سعسع" بين دمشق والقنيطرة، وفي نيتهم أن يساهموا في التصدي بأسلحتهم الفردية لقوة مظليين إسرائيليين أنزلت في هذه المنطقة. وشاءت المقادير أن يصطدم الباص الذي يقل المجموعة بدبابة سورية فينقلب ويستشهد أحد المقاتلين ويجرح آخرون وكان أبو الهول من بين الجرحى.

خطة اغتيال لم تتم

منذ العام 1973 كان أبو الهول مسؤولا عن جهاز الأمن المركزي، ومن موقعه هذا حمى الثورة والمقاتلين وحافظ على عناصرها بيقظة وفدائية وكفاءة. ولما كان أبو مازن أحد الذين تبنوا سياسة تدعو إلى تهدئة الأمور على أساس تبني ما كان يعرف بالنقاط العشر حيث طرحت الدولتان العظميان برنامج مؤتمر يعقد في جنيف استنادا إلى القرار 338 الذي يدعو الأطراف المعنية إلى الحوار المباشر تحت رعاية مناسبة.

يقول أبو مازن:

ولما كنت من المؤيدين لهذا الاتجاه فقد رأت بعض الجهات المتطرفة في منظمات الرفض أن تخطط لاغتيالي. ومن هنا أرسل أبو نضال مجموعة من خمسة أشخاص إلى دمشق للقيام باغتيال، وقد تمكن جهاز الأمن المركزي برئاسة أبو الهول من كشف العملية قبل وقوعها وأرسل مجموعة على وجه السرعة من بيروت إلى دمشق لإلقاء القبض عليهم. وعندما أحسوا بذلك هربوا نحو الحدود السورية العراقية. إلا أن مجموعة أبو الهول استطاعت أن تلحق بهم وتقبض عليهم قبل وصولهم إلى العراق وأعادتهم مخفورين إلى سجن الثورة. وبعد ذلك بعث لي أبو الهول من يعلمني بتفاصيل الحادث.

أبو الهول في ميزان الحكيم

وقد رسم جورج حبش صورة دقيقة لهايل عبد الحميد فهو تجربة تتمرد على الاضطهاد، متمرد يرفض الذل ويرفع وجه المقاتل، وكان المناضل الفلسطيني الذي يرفض أن يكتب الآخرون مصيره، فيكسر الأغلال مهما كان منشؤها ويكتب مصيره كما يريد وبالحبر الذي يريد فيعيش مقاتلا ويذهب مقاتلا.

لم يكن معيار أبو الهول الفكر ولونه، أو الفصل وشعاره، كان لا يكترث بالنظريات، فالحقيقة عنده تقوم وتنشأ في حقل الممارسات النضالية والكفاح المستمر، كان يمد يده إلى كل راحة كتب عليها اسم فلسطين.

وفي المرآة فاروق القدومي

ويصفه صديقه فاروق القدومي بأنه كان إنسانا مرهف الحس، صادقا في قراره، واعيا لمهامه، باحثا متعمقا لا يأخذ قرارا إلا بعد مشورة، يجول بنظره بعيدا إذا ما استجدت أحداث أو طرحت أفكار وكان سريعا في اتخاذ الإجراءات.

يسير الهوينى بين صفوف الثورة ويتلمس كل شيء فيها وكأنه أداة إنسانية لاقطة بكل الأحاسيس التي تصدر عن كل ما يعمل ومن يعمل معه.

ويواصل فاروق القدومي وصفه لهايل فيقول:

كان أبو الهول يعالج المشاكل داخل الحركة بروح وفاقية حريصا على وحدة الحركة ومصيرها وعلى كل ما تمتلكه وعلى كوادرها. يحاول باستمرار أن يضع أصابعه على نقاط الضعف والقوة، يراجع نفسه بحكمة وعناية ودراية، عصبي المزاج أحيانا وخاصة أذا أحس بشيء يمس الثورة أو يمس مهامه.

الإنسان النبيل الوجه الآخر للثائر

كان أبو الهول أبدا رؤوفا حنونا يفيض حبا وحنانا لأسرته ويشعر بوجد شديد نحو زوجته وابنتيه.. فقد كان أبا مثاليا ترى في عينه كل إحساس نبيل، يتدفق كنهر عظيم يصب في بحر الإنسانية، يحيط عائلته بالعواطف الجياشة التي تنبع من قلبه وإحساسه ووجدانه. ولكنه كان حذرا يقظا مع الأعداء والخصوم، صارما في معاملاته معهم كحد السيف، لا يلين ولا يستكين تبدو عليه بين أفراد عائلته براءة الطفولة وتبدو عليه الجدية والصرامة والعنف مع خصومه وأعدائه.

"من مأمنه يؤتى الحذر"

الحادث المأساوي الذي زلزل كيان الثورة الفلسطينية يوم رحيل هايل عبد الحميد وصلاح خلف والكادر أبو محمد جاء على يد أحد حراسات أبو الهول وذلك مرده إلى إنسانيته وأسلوبه في التعامل مع المناضلين. فعندما كان يعود أحد التائبين من معسكر العمالة والضلال ويظهر ندمه ويطلب المغفرة كان أبو الهول يعرف كيف يعيد صياغة هذا المخلوق ليحصل منه على مقاتل شرس مخلص قادر على تنفيذ أخطر المهام وأشقها تحت مشاعر الندم والتوبة والرغبة في التطهير.

وكان سعادة هائل فائقة كلما نجح في تجربة من هذه العينة، غير أن الكادر الذي أطلق عليه الرصاص فقتله هو وصلاح خلف وأبو محمد جاء مفاجأة قاسية وكارثة قومية وأمنية لم تكن في الحسبان. غير أن التاريخ يشهد بأحداث كثيرة من هذا النوع. فعمر بن الخطاب اغتاله أبو لؤلؤة وهو رجل قريب منه، وعلي بن أبي طالب اغتاله ابن ملجم وهو يصلي الفجر. وفي العصر الحديث تم اغتيال كيندي بفعل تآمر جهاز الدولة الذي يفترض أنه يحمي الرئيس، كما أن أنديرا غاندي قتلت بيد أحد حراسها، وتعرض البابا وريغان لمحاولات اغتيال، كما اغتيل الزعيم غاندي بيد أحد أتباعه وكذلك قتل رجيف غاندي بيد أحد حراسه.

أصابع الاتهام الحقيقية

لا ينبغي لنا أن نأخذ الأمور ببساطة وسطحية. فالذي أطلق النار فلسطيني ولكن الجريمة تمت نتيجة تآمر أعداء الشعب الفلسطيني خاصة وأن الشهيدين هايل وصلاح كانا يعملان من أجل وقف حرب الخليج الأولى. غير أن أعداء الشعب الفلسطيني وخاصة إسرائيل كانوا يعملون على تأجيج هذه المعركة لأنها تصب في مصلحة العدو الإسرائيلي. وإذا عُرف السبب بطل العجب. لقد كان الشهيدان يقفان في بوابة الدفاع الأول عن شرف وكرامة الأمة العربية. وكان من الشجاعة والجرأة بحيث قالا للرئيس صدام: ليس هذا وقت تصفية الحسابات لأن هناك عدوا يستحق أن نوجه إليه كل طاقاتنا.

أخي هايل.. قد تأملت طويلا في مسيرة حياتك وأشهد أني تعلمت منك شجاعة الأبطال وصدقهم وعفتهم وزهدهم وحبهم للحق وتفانيهم في الدفاع عن وطنهم بعيدا عن الأضواء والأنانية والشعارات والتنظيرات والأيديولوجيات. كنت مناضلا يرفع البندقية بيد ويقاتل بيسالة وشجاعة ولا يتراجع خطوة واحدة ولا يهاب الموت تماما كما أعرف هذه الصفات في الرئيس الراحل ياسر عرفات.. شجاعة الموقف وشجاعة الرأي.. شجاعة القلب وشجاعة العقل.

(2012/7/20)

المهندس خالد البطراوي

درست في موسكو وأومن بالفكر الماركسي ولكني أصوم وأصلي وخُلقي الإسلام

في الرابعة عشرة من عمري حملت الزاد إلى سليمان النجاب

في مُغر وكسارات الرام المهجورة

أمضيت سنواتٍ مقاتلا في جبهات لبنان

وأهلي وأصدقائي يعتقدون أني أدرس في موسكو

استعدنا قلعة شقيف من العدو بقتال ضار

فلما احتلها العدو قمنا باستردادها مجدداً ثم انسحبنا

شاب مناضل.. دق أبواب الخمسين.. ولكنه شاهد حيّ على جانب خطير وهام من مسيرة الثورة الفلسطينية.. إنه فصل رائع من تاريخ النضال الفلسطيني، ليس فصلا فحسب، وإنما كتاب كامل.. يلقي الضوء على تلك الجوانب الخفية من بطولات وفعاليات النضال الفلسطيني.. وخاصة ما يتصل بالجانب النضاليّ القائم على المواجهة المسلحة الجريئة، والمنسجمة في توافق فكري وفلسفي مع الرؤى الثقافية والأيديولوجية.

أريد أن أقول إن خالد البطراوي.. أنموذج رائع لامتزاج الثقافة والفكر والرؤية النضالية الوطنية مع الالتزام بالنضال الفعلي القائم على حمل السلاح والقتال إلى حد الشهادة، والاستبسال إلى درجة الفداء والموت.

وهذا التناغم، أو التكامل في شخصيّة خالد.. كان حصيلة نشأته وتربيته في أسرة المناضل الأب.. أبو خالد البطراوي- الناقد والثائر الراحل، بكل حضوره وتاريخه ومسيرته الفذة.. وما أصدق ما يقوله القدماء في حكمتهم الخالدة ذاك الشبل من ذاك الأسد.

وللحقيقة أقول.. إنني عندما تأملت هذه الومضات الدالة من حياة خالد.. ازددت إيمانا.. بما أحاول أن ألقي الضوء عليه من تاريخ النضال الفلسطيني المعاصر.

ففي شهادة خالد.. يظهر ذلك الإيقاع الرائع لأداء الثورة الفلسطينية العسكرية.. عندما يقاتل أبناء الفصائل بإخلاص.. وشجاعة.. ويتقدمون لمحاربة عدو ضار يفوقهم تسليحا وعدة وعددا وتجهيزاً.. ولكنه لا يفوقهم إرادة وعزما وشجاعة.. وتفانيا إلى حد التسابق إلى الموت.. في سبيل ما آمنوا به.

إن شهادة خالد.. تلقى الضوء على نضال شباب الجامعات.. ودورهم في المعارك الضارية التي خاضها شعبنا في جبهات النضال في لبنان.. وتجلو تلك الحقيقة الرائعة التي تتمثل في إعلان منظمة التحرير.. التعبئة العامة لكل طلبة فلسطين الجامعيين في العالم.. باستثناء طلبة الأرض المحتلة ومن هم في السنوات الأخيرة من دراستهم.

هذه الحقيقة الرائعة..تجسد هوّية الشعب الفلسطيني.. فخيرة أبنائه ممن هم على مقاعد الدراسة الجامعية يتحولون بالألوف إلى مقاتلين في صفوف الثورة الفلسطينية.

ما أروع هذا التاريخ..!

وما أبدع هذه الصفحات..!

وما أجمل وأشجع وأنبل أبناء وطني- وهم في سن الورود- يتسابقون إلى حمل السلاح دفاعا عن قيم ومبادئ ومواقف منظمة التحرير الفلسطينية.

أنقذتني خالتي أُم علي

كان ذلك في عام 1982.. عدت مجددا إلى لبنان.. على اثر إعلان تعبئة عامة جديدة لطلبة فلسطين الجامعيين في الخارج، وقد عاصرت حصار بيروت الذي استمر ثمانية وسبعين يوما، حيث كنت مسؤولا في الكتيبة الطلابية، وتحديدا عن محور الأوزاعي، وكورنيش المزرعة، والسفارة الكويتية.

وكنت قد اكتسبت خبرة ميدانية حيث خدمت في الجنوب اللبناني واعتقلت في معسكر أنصار "1"، وخضعت للتحقيق، وقد أنكرت أنني كنت في قواعد الثورة الفلسطينية، وأكدت بأنني طالب في كلية الهندسة في جامعة "بيروت" وقد حضرت إلى "صور" لزيارة خالتي "أُم علي".

وعندما تم اعتقالي.. أحضروا لي بروفيسيرا في الهندسة من جامعة حيفا، وقام باستجوابي على مدار ساعة ونصف، وسألني أسئلة هندسية بحته وباللغة الانجليزية، وكنت طوال الوقت أرد على أسئلته، وأنا أخشى أن تفلت مني عبارات أو اصطلاحات باللغة الروسية.. وقد نجحت في الإجابة على كل ما طرحه علي.. ويعود الفضل في ذلك إلى إتقاني اللغة الانجليزية حيث أني كنت قد درستها في مدارس الفرندز برام الله.. كما كنت أُدَرِّسُ اللغةَ الانجليزية للطلبة الروس في الجامعة.

وعندما كنت أخدم في صور.. كانت في الجوار سيدة تدعى بالفعل أُم علي، وكانت لنا بها علاقة طيبة وعلاقة جيرة. وأخذني المحقق، لمقابلة خالتي المزعومة.. وما أن رأتني أُم علي حتى أخذتها بالعناق.. وطال العناق.. وهمست لها.. لقد قلت لهم.. إنك خالتي وأنا جئت لزيارتك من بيروت.. حيث أدرس الهندسة.

وأتقنت أُم علي دورها.. وهي تقوم بدور خالتي.. واقتنع المحقق وتم الإفراج عني.

وأذكر من زملاء المعتقل في أنصار "1" المناضل محمد هارون المعروف بإبي هارون، وصلاح التعمري الذي كان مسؤولا عن المعتقل. وكلاهما مناضل فذ وقائد ميداني ومحارب شجاع.

شاعر على الرصيف يموت مرتين

أثناء الحصار الشهير الذي عشناه في بيروت عام 1982 كان الشاعر علي فوده.. يصدر نشرة تحت عنوان "على الرصيف" وكان يوزعها بنفسه على قواعد المقاتلين، وكانت أدبية ثقافية فنية انتقادية، وكنا

ننتظر وصولها بلهفة وشوق. وكانت محتوياتها تمتاز بالتجديد والذكاء وخفة الظل.. ولكن علي فوده أصيب بشظايا قنبلة فاستشهد ووضع في ثلاجة المستشفى.

وذهبت بنفسي لوداعه، وإلقاء النظرة الأخيرة عليه ومن ثم لاحظت.. أن هناك نبض، وأنه لا يزال على قيد الحياة، فأبلغت الأطباء بذلك، فأخذوه.. وأجروا الاختبارات اللازمة فتبين لهم أنه بالفعل لا يزال حيّاً، وعلى الفور تمت إجراءات علاجه.. وإعادته إلى الحياة، واستغرق ذلك مدة.. صدرت في أثنائها الصحف وهي تحمل خبر استشهاده ومقالات عديدة في تأبينه وكانت جميعها تشيد بألمعيته وعبقريته وبعض هذه المقالات كانت من خصومه، ومن أكثر الناس عداءً له.

وقد قرأ علي فوده نعيه ومقالات تأبينه والإشادة به.. كل ذلك بضمير مستريح، وهو يعجب من سخرية القدر وتقلبات الناس وبعد يومين استشهد وهو مسرور أيما سرور.

تشربت البطولة من جيفارا غزة

على أثر هزيمة عام 1967، تشكلت خلية عسكرية مقاتلة في قطاع غزة امتازت بالشجاعة والجرأة والإقدام ويقودها شاب جريء عرف بلقب جيفارا غزة.. وهو البطل المعروف باسم عبد الحليم الأسود.. وهو شاب وطني جسور مبادر كان يقود المجموعة، وعبد الهادي الحايك الذي تربطه علاقة قرابة بوالدتي وعبد العمصي. وقد أذاقت هذه الخلية الاحتلال صنوفا من الهجمات والعمليات الناجحة.. في كل أنحاء فلسطين.. وانتقلت من قطاع غزة إلى الضفة الغربية. وكان أهم ما تحمل من معاني ورموز.. أنها حملت السلاح ولما يمضِ على الاحتلال والهزيمة ألا أيام أو أسابيع استجابة لنداء عرفات الذي نقل قيادته إلى قلب القدس المحتلة.

وكانت قوات الاحتلال تفتش عن هذه الخلية في كل مكان.. وقد دأبت على اقتحام بيتنا في ساعات مختلفة من الليل.. وفي أيام.. متلاحقة.

ومن جرأة وثبات وعزيمة هؤلاء الشبان تعلمت الشجاعة والثبات والاستهتار بالعدو.. وتحديه.. ولكن القدر شاء أن يتم استشهاد هؤلاء الأبطال في كمين أُعد لهم في منزل الدكتور رشاد مسمار.. وكان هذا الطبيب الشجاع يقدم لهم كل مساعدة ويؤويهم بمعرفة وتشجيع الدكتور حيدر عبد الشافي. ومن المؤسف حقا أن الممرضة التي كانت تعمل في عيادة الدكتور رشاد مسمار هي التي أخبرت عنهم.. بعد أن سمعت.. أصواتا.. وهمسات تنطلق من أحد الغرف.

إن الوطنية الصادقة لا تلقن من خلال الفصائل والمقولات والمحاضرات والمناظرات والخطب والقوافي ولكنها شعلة مقدسة تتوالد وتتصاعد وتنضج من خلال الأفعال والمواقف.. من خلال السلوك، فالوطنية الصادقة تعمل ولا تَتَقوّل.

من موسكو إلى دمشق

في عام 1978، أوفدت من قبل الحزب لدراسة الهندسة المدنية في الاتحاد السوفياتي، وما أن وصلت حتى انتقلت إلى دمشق، والتحقت بأحد مراكز التدريب العسكري في معسكرات "فتح"، ومن هناك انطلقت إلى الجنوب اللبناني.. وإلى مختلف الجبهات والقواعد التابعة للثورة الفلسطينية.

كنت انتقل من جبهة إلى جبهة.. ومن معركة إلى معركة.. ومن قيادة إلى قيادة تبعا لأوامر القيادة.

واستمر ذلك أكثر من أربع سنوات بما فيها معركة حصار بيروت الشهيرة عام 1982.

ولي أن أقول.. إن حسي الأمني كان عاليا.. فقد دأبت طوال تلك الفترة على إرسال الرسائل بانتظام إلى أهلي في رام الله عبر البريد الإسرائيلي. بل إني كلفت إحدى زميلاتي أن ترسل رسائل منتظمة إلى أهلي.. كنت قد أعددتها.. وحشوتها بأخبار وسلامات وتحيات وذكريات.. وعبر تواريخ مختلفة.. وكانت هذه الرسائل.. طوق نجاة لي.. بعد ذلك عندما تم اعتقالي.. فقد أقنعت المحامية فليتسيا لانغر المحكمة.. بأني كنت طوال تلك السنوات طالبا جامعيا منتظما في كلية الهندسة.. وبذلك فندت ستة وثلاثين اعترافا ضدي.

وما أشبه اليوم بالبارحة

في هذه الأيام الحزينة الدامية وأنا أواكب مأساة الشعب السوري الشقيق.. في هذه الأيام العصيبة.. تأخذني الذكريات.. إلى عام 1978.

كنت أمارس تدريبا عسكريا عنيفا مبرمجا في معسكرات فتح.. عندما حدثت مجزرة كلية المدفعية في حماة، يومها دك النظام السوري بقيادة حافظ الأسد تلك الكلية.. ومسحتها الطائرات مسحا. وقد فر بعض الناجين من طلبة الكلية صوب معسكر تدريب "فتح". كانوا في حالة يرثى لها من الخوف والرعب والجوع.. فأخذنا بيدهم.. ليتم اعتقالنا جمعا بتهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين، واقتادونا جميعا إلى سجن المزة العسكري الرهيب. كنا ثمانية وأربعين عنصرا فلسطينيا وتعرضنا لأسوأ أنواع العذاب، ولم يتم الإفراج عنا إلا بعد تدخل أبو جهاد الشخصي.. وتخليصنا من تهمة إيواء ضباط متمردين.

ملحمة قلعة شقيف

كان عام 1978 عاما حافلا في حياتي النضالية.. فقد خدمت في منطقة أرتون في لبنان، ضمن قوات جيش التحرير وكنت أحد قادة كتيبة "الجرمق"، وتحديدا الكتيبة الطلابية برفقة الشهيد جواد أبو الشعر من لبنان وفي تلك الفترة خدمت في قلعة شقيف.. قبل وأثناء الاجتياح الإسرائيلي.

وقلعة شقيف.. نقطة عسكرية حصينة.. لا يمكن اختراقها أو السيطرة عليها.. وقد حاولت قوات العدو احتلالها مرات عديدة، ولكنها كانت في كل مرة ترتد مخلفة عشرات القتلى والجرحى.. معلنة فشلها أمام صمود وبطولة المقاتلين الفلسطينيين.

وللحقيقة فإن القوات الإسرائيلية كانت تستخدم الطائرات في هجومها على قلعة شقيف.. وتعزز هذا الهجوم بالمدفعية الثقيلة ومن ثم محاولة الزحف والتقدم.. وقد نجحت مرة في احتلال القلعة. ولكن المقاتلين الفلسطينيين.. عادوا واستعادوها ببسالة وروح قتالية عالية.

وتكرر هذا السيناريو أكثر من مرة.. وبعد أن تمت سيطرتنا على القلعة.. وطرد العدو منها صدرت إلينا الأوامر بالانسحاب.

وحتى الآن.. تعد معركة قلعة شقيف شاهدا على أن الجندي العربي.. قادر على هزيمة أسطورة جيش العدو الذي لا يقهر.. وذلك بفضل بسالة وشجاعة مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية.

تتلمذت في مدرسة النضال والتحدي

ولد خالد محمد خالد البطراوي في 1960/5/3، في مدينة القدس في مستشفى الهوسبيس.. وكان والده الأديب الثائر أبو خالد قد هاجر من بلدة أسدود.. واستقر بعد رحلة معاناة في مدينة البيرة.. في بيت قرب مدرسة الفرندز.

يقول خالد:

في مرحلة الروضة، درست في مدرسة الست "عدلة".. التي تشغل مكانها الآن مدرسة خليل الرحمن، وكانت الست عدلة مربية مشهورة. وتخرج من مدرستها أجيال من شباب البيرة اللامعين وكانت. تدير هذه المؤسسة بنجاح واسمها الكامل عدلة العقاد.. وعندما توفيت خرجت في جنازتها.

أما المرحلة الابتدائية.. فقد درست في مدرسة الفرندز.. من الصف الأول الابتدائي حتى الصف السابع الابتدائي. وبقرار مني وبمبادرة ذاتية قررت الانتقال إلى مدرسة الوكالة وذلك لسببين.. الأول سبب مادي.. لأن الدراسة في الفرندز ينوء بها دخل والدي المحدود، والسبب الثاني الشعور بالغربة حيث أن طلبة المدرسة كانوا بعيدين كل البعد عن الهم الوطني والمشاركة في الفعاليات الوطنية، وتحديدا مقاومة بدايات الاستيطان والتي كانت تنتزعها حركة غوش أمونيم. وكان ذلك في عام 1973.. الذي شهد بداية تشكيل الجبهة الوطنية وظهور "اتحاد كفاح الطلاب".

وفي عام 1972 بدأت حركة العمل التطوعي، وشاركت فيها أنا وأخي وليد وأخي سامي وشقيقتي "زويا"، وكانت هذه الحركة قد تأسست بمبادرة من مكتبة بلدية البيرة.. وبمشاركة عزمي الشعيبي، ومنير فاشه، وسهام البرغوثي، وسهير البرغوثي، ومحرم البرغوثي، وخليل محشي، وكامل جبيل وآخرون.

وانضممت إلى "اتحاد كفاح الطلبة"، وأنا في الثالثة عشرة من عمري، وللاتفاف على القانون سمي الاتحاد.. باسم الأسَر الصفية، إلا أن الاحتلال أصدر الأمر العسكري 378.. وهو يضع هذه الكتل الصفية تحت طائلة الاعتقال.

وكنت أحد ممثلي الحركة الطلابية في الجبهة الوطنية عام 1974، وقد تشكلت هذه الجبهة من قبل التنظيمات الفلسطينية، وكان سليمان النجاب أحد قادتها.. وكان مسؤولا مباشرا في الاتصال معي.. إلى أن اختفى من جراء عمليات الملاحقة، وكان يلجأ إلى أماكن خفيّة قرب كسارات الرام. وكنت أومن له الطعام في مخبئه.

أول الغيث قطرة

في نهاية عام 1973.. كان أول اعتقال لي بهدف التحقيق، وقد مكثت في التحقيق ثلاثة أيام، ثم أطلق سراحي دون اعتراف.. وكانت الأسئلة تتركز حول نشاط العمل التطوعي، والحركة الطلابية، وكرت سبحة الاعتقالات ما بين عام 1977- 1978 لفترات قصيرة.. ولكنها متوالية بحيث أني لا أكاد أذكر أن يأتي يوم الخميس وأكون موجودا في البيت.

قافلة الشهداء الأبرار

في سنة 1976 جرت حملة اعتقالات لعناصر الجبهة الوطنية، وخاصة الجبهة الشعبية، وقد استشهد في داخل السجن الشهيد محمد الخواجة من نعلين في زنازين رام الله، وكنا نسمع صراخه في التعذيب، وفي

نفس العام استشهد خضر عيسى من قرية عين عريك، كما استشهد أحمد ديب دحدول من سلفيت.. ثم استشهدت لينا حسن مصباح النابلسي.

في عام 1978.. أوفدت من قبل الحزب لدراسة الهندسة المدنية في جامعة موسكو.

وكنت طوال فترة الدراسة نائبا لرئيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين من عام 1978 حتى العام 1984، وكانت الدراسة منحة على حساب الاتحاد السوفياتي، وفي عام 1979 أبرمت منظمة التحرير الفلسطينية اتفاقية مع وزارة التعليم العالي السوفياتية بتخصيص 5600 بعثة مجانية لطلبة فلسطين سنويا ابتداء من عام 1979 حتى سنة 1985.

وفي عام 1978، انتدبت من قبل منظمة التحرير، وكذلك من قبل عبد الجواد صالح، وعبد المحسن أبو ميزر لتمثيل منظمة التحرير في تشييع جثمان الشهيد كمال جنبلاط في قريته "المختارة".

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم

في عام 1979 ذهبت الى سيبريا للعمل في بناء مدارس في التعاونيات الزراعية، وكان العمل في هذه المناطق النائية الجليدية شديد القسوة، ويتم في ظروف صعبة جدا.

فإذا كان الإنسان يتقاضى عن عمل معين روبلا واحدا في مدينة موسكو، فإنه وعلى نفس العمل يتقاضى في سيبريا ثمانية روبلات.

وقد عملت حتى وصل مجموع ما تقاضيته 35000 خمسة وثلاثون ألف روبل، بما يعادل 52000 دولار على امتداد ثلاثة شهور، ولم أحصل على روبل واحد منها.. فقد تبرعت بها جميعا لأهلنا في لبنان.

من المدرجات .. إلى خنادق القتال

عام 1980.. أعلنت التعبئة العامة من قبل منظمة التحرير الفلسطينية، بحيث كان على جميع الطلبة أن يغادروا كلياتهم للالتحاق بصفوف الثورة الفلسطينية وكانت التعبئة تستثني طلبة الأرض المحتلة وطلبة السنة النهائية.. وعليه فقد ذهبت إلى لبنان وخدمت في الجنوب اللبناني وتحديدا في منطقة عرب صاليم، والعايشية والقواعد العسكرية في تلك الناحية.

وفي 29 ابريل عام 1981 استشهد الشهيد باسم منيب حجازي في عملية قصف للطيران العسكري على القاعدة العسكرية في العائشية. ثم استشهد لاحقا في 1981/5/7 محمد سعيد في قصف آخر للقاعدة العسكرية وكلاهما من طلبة الاتحاد السوفييتي.

مع إميل حبيبي في موسكو

عدنا إلى الدراسة مجددا في حزيران عام 1981 وفي موسكو التقيت بالأديب الفلسطيني إميل حبيبي، الذي كان قد أحضر لي من الأهل مبلغ مئتي دولار. وقد وجهت إليه لوما شديدا على ذلك.. لأني اعلم بمعاناة الوالد من جهة ولأني قادر دائما على أن أتدبر أموري.. وعاد الأستاذ حبيبي إلى الأرض الوطن.. ومعه المبلغ.

تواصل أدبي بين كاتب وولده

في تلك الفترة كانت تصدر صحيفة الطليعة في القدس وكان الوالد يكتب فيها عمودا قصيرا اسبوعيا تحت عنوان لماذا.. ويوقعه باسم أيوب صابر وكنت أرد على مقالاته بأفكار وخواطر أوقعها باسم صابر أيوب صابر تارة، وتارة باسم ريم الاتحاد السوفييتي أو فادي أبو خالد .

شاهد عيان على المأساة

في عام 1982، عدت مجددا إلى لبنان على أثر إعلان التعبئة العامة مجددا. وفي هذه المرحلة عاصرت حرب بيروت.. وكنت تحت الحصار الذي استمر ثمانية وسبعين يوما، وكنت مسئولا عن الكتيبة الطلابية، وتحديدا عن محور الأوزاعي، وكورنيش المزرعة، والسفارة الكويتية.

وانتهت معركة بيروت..

وأنا الآن في الثانية والعشرين من عمري.. وفي 1982/8/29 ذهبت برفقة وفد من الطلبة الجدد كان عليهم أن أوصلهم إلى موسكو، ومن ثم عدت إلى بيروت حيث خدمت مع قوات جيش التحرير في مخيمي صابرا وشاتيلا، خلف المدينة الرياضية وبقيت حتى ليلة 1982/9/15.

في تلك الليلة جاءت إلينا الأوامر بالانسحاب.. وفي 1982/9/16 بدأت قوات الكتائب اللبنانية في التجمع حول المخيمين، حتى الساعة 11:20 الحادية عشرة والثلث.. ومن ثم حصلت المجزرة.. واستمرت حتى مطلع فجر يوم 1982/9/17.

بعد أن انسحبت قوات الكتائب في حراسة القوات الإسرائيلية.. وفي حالة شلل تام من قواتنا بناء على الأوامر الصادرة إلينا.. كان لدي إحساس بأن هناك شيئا غير عادي قد جرى في المخيمين.. وكنا على يقين من حركة الجيش الإسرائيلي أن شارون في المنطقة.

ولم أستطع أن أسكت أكثر من ذلك.

قلت لزملائي ورفاقي الذين كانوا تحت قيادتي:

أنا سأكسر الأوامر.. وسأدخل إلى المخيمين.

سأذهب وحدي.. وعليكم أن تلزموا أماكنكم.

وقبل أن أخطو خطوة واحدة.. قال وليد عوض من غزة: وأنا سأكون معك.

كنا أول عنصرين من فلسطين.. يدخل المخيمين: خالد البطراوي ووليد عوض.

كانت أرض المخيمات تشتعل بحرائق صغيرة هنا وهناك.. ورائحة الدم.. وحشرجة الضحايا.. وأنفاس ورائحة الموت تنتشر في كل مكان.

شاهدنا.. عشرات.. بل مئات الجثث لأطفال ونساء ورجال وشباب.. في كل مكان.

وبدأت أطلق صيحات.. ونداءات.. أعلن عن تقديم المساعدة لمن لا يزال على قيد الحياة..

ولكن.. أحداً لم يستجب..

وبعد فترة.. كررت.. النداء.. أنا ووليد عوض.. فجأة.. وجدت فتاة.. تأخذني بين ذراعيها.. وتتشبث بي في عناق يائس وكل أجزاء جسمها ترتعش.. إنها تستغيث.. ومنها فهمت أنَّ الضحايا والمصابين لم يكونوا يعلنون

عن وجودهم.. حتى لا تتم تصفيتهم. فقد كانت شراذمة الكتائب.. تلجأ إلى هذا الأسلوب الحقير لتصفية كل من يطلب المساعدة.

بعد أن تأكد من حولنا.. أننا عناصر عربية جاءت للمساعدة.. فجأة.. خيل إليّ أنني أعيش مشهدا من مشاهد يوم القيامة.. وفي لحظة البعث المنتظرة لأن مئات الأشخاص نهضوا.. وهبوا مرة واحدة يطلبون الاستغاثة.

وأشهد أني قمت أنا والمجموعة التي كنت أقودها بمجهود شاق.. استنزف قوانا وأعصابنا، وبعد عمل متواصل كنا قد قمنا بدفن 1643 جثة لضحايا من أبناء المخيمين.. وقد تم ذلك خلال ثمانية وأربعين ساعة.

تخطيت 36 اعترافاً بمساعدة فليتسيا

عام 1984..

عدت إلى ارض الوطن، متخرجا من كلية الهندسة.. وفي 1985/7/13 اعتقلت بتهمة قيادة الكتيبة الطلابية في لبنان، والإشراف على عملية التعبئة.. وفي المحكمة كان هناك ستة وثلاثون اعترافا ضدي.

وقد أنكرت معرفتي بكل ما جاء فيها.. وتنقلت بين سجون رام الله ونابلس وبيتح تكفا، وواجهت عتاولة المحققين ولكني بقيت على مبدئي.. وأقوالي.. أنني كنت طالبا في جامعة موسكو.. أدرس الهندسة.. ولم أغادر موسكو إلى لبنان.. على الإطلاق.

وكانت محاميتي فليتسيا لانغر.. بذكائها وإخلاصها ورؤيتها الإنسانية لكفاح شعبنا قادرة على أن تحصل لي على البراءة.

وليس ذلك فقط.. بل انها كشفت لنا.. عن فصول رائعة من نضال منظمة التحرير.. عندما كانت تعلن التعبئة العامة لطلبة فلسطين.. فيغادرون مدرجاتهم ويتوجهون بالألوف إلى جبهات القتال.

ما أروعك يا بني وأنت تسلط الضوء على هذه الحقيقة المشرفة.. التي تؤكد جدية المنظمة وقدرتها.. وفدائيتها وإصرارها على التحدي.. ومجابهة العدو.. مهما كانت موازين القوى.. فالمقولة الحكيمة تقول: إذا أهنت يجب أن تقاتل.. ليس مهما أن ننتصر.. ولكن المهم أن تقاتل.. لقد آمنت قيادتنا دائما بأن من استغضب ولم يغضب عاش ذليلا، وكانت منظمة التحرير بقيادة ياسر عرفات.. تقاتل أينما أتيح لها.. وكانت ترفض أن تهادن وأن تطأطئ.. حتى لو خاضت عشرات المعارك.. من فجر عام 1965.. حتى اليوم..

وما أروع ما يقوله آرنست همنجواي: إن الإنسان قد يدمر.. ولكنه لا يهزم.

وقراءة متأنية لمسيرة حياتك يا خالد تؤكد هذه الحقيقة.. إننا نستطيع أن نقاتل، ونستطيع أن ننتصر عندما يفرض علينا القتال.

إن وجود خالد في معترك الثورة الفلسطينية وفي خطوط القتال وسط النار والدم والبارود خير دليل على أن والده كان من الصفوة التي تقاتل بكل ما تملك بدون أي تحفظ مهما كان.

(2012/8/3)

الدكتورة سحر خليفة

رفضوا نشر "الصبّار" فكتبت عشر روايات وحصدت الجوائز العالمية

الوطن– والمرأة ثنائية قدرية التزمت بها لتحرير الأرض والإنسان

حصلت على شهادة الماجستير والدكتوراه من أمريكا

نالت البكالوريوس مع ابنتها في نفس العام

أرفض أن أتقاسم جائزة مع كاتبة إسرائيلية

كما رفض محمود درويش "نوبل" لنفس السبب

أنا وحياتي والكلمة

تبدأ الحكاية بمولد طفلة صغيرة لعائلة نابلسية، وكالعادة استقبلت الطفلة بعدم ارتياح بلغ حد الشهقات وذرف الدموع، فقد كانت الطفلة الخامسة على التوالي، وتبعتها ثلاث أخريات، وكان الوالد يتلهف على صبي يحمل اسمه ويرث أملاكه ومقتنياته، ولذلك فقد تأثر جدا بذلك الحدث غير السعيد عندما ولدت. فبالإضافة إلى حقيقة أن البنات- حسب تقاليدنا العربية- لا يستطعن حمل الميراث بالشكل المطلوب ولهذا شعر أبي أن صورته كأبي البنات، وما تعنيه هذه الصورة من انتقاص في مقاييس الرجولة.

أما ردة الفعل بالنسبة للأم فقد كانت أبلغ؛ إذ بكت الأم لأيام وأيام واعتبرت نفسها واحدة من الأمهات الشقيات الملعونات المنحوسات. فبالإضافة إلى مصابها الأليم أحست بالذعر خوفا من أن يستغل الزوج ذلك الحدث ويتخذه مبررا لزواج جديد من امرأة جديدة.

في ذلك الجو القاتم غير المرحب به، تعلمت معنى وجودي وقيمتي في هذا العالم، تعلمت أني عضو من جنس شقي غير ذي نفع وقليل القيمة. وقد لقنت منذ الطفولة أن أهيئ نفسي لمحاذير كوني من هذا الجنس.

وقد قيل لي مرارا وتكرارا إن ما علي هو تدريب النفس على الطاعة والامتثال للأوامر، والتقيد بالقوانين التي غطت وشملت كل تفصيل من تفاصيل حياتي. وكوسيلة للهرب لجأت إلى القراءة والكتابة ثم الألوان فقد رسمت لوحة بالذات لا زلت أذكرها وكانت تمثلني في تلك المرحلة وتتلخص نظرتي إلى هذا العالم.

كان اسم اللوحة "خلف الجدران"، وفي الحقيقة كان ذلك وصف دقيق لمجمل حياتي قبل الاختراق وكسر الحواجز. كانت تمثل فتاة مراهقة تنبطح على بطنها على أرض حديقة محاطة بالأسوار، وبداخل الحديقة خلف أحد الجدران ترتفع صفصافة تمد ذراعها نحو الداخل، والفتاة تنظر إلى ذلك الفرع وفي عينيها خوف ويأس وقلة حيلة.

مرحلة خلف الجدران

طوال تلك المرحلة، من مرحلة "خلف الجدران" لم أستطع التفكير بنفسي كعضو منتمٍ لمجتمع ما، بل كخارجة منبوذة، ضحية، وروح ضائعة لا تجد ملاذا يؤويها أو يحميها. حتى في روايتي الأولى: "لم نعد جواري لكم"، التي شهدت أول تجاربي في تناول وتحريك شخصيات متعددة متباينة متنوعة، وكانت شخصياتي جميعها حبيسة ظروف ومآزق لا حول لها وربما كنت في تلك المرحلة أعكس تأثري بالأدب الوجودي التي كنت ألتهمه وأتشبع به وأتشبه. وقد كنت مشدودة إلى ذلك النوع من الأدب لأنه خيل إلي أنه يبلور ما أحس وأومن به. ففي محاكمة كافكا وجدت صورة تعكس ذاتي وتفسر ما عبرت عنه كتاباتي. وفي المحصلة الأخيرة فإن محاكمة كافكا لم تكن أكثر من تجربة إنسان مغلوب على أمره. كمستر "ك" المعتقل داخل حالة عبثية لا حل لها. فأينما ذهب مستر "ك" ومهما فعل يواجه بنفس الهزيمة ونفس الإهانة ونفس الألم. أما النهاية فتمثل عقلية انهزامية استسلامية تتقبل "القدر" دون محاولة للمقاومة أو طلب للعون أو الإفلات.

أمي تدفعني إلى المقاومة والتحدي

الشخص الذي قاد الحملة ضد تمردي في ذلك الوقت كانت أمي، امرأة قوية الشخصية، فولاذية الإرادة وذات ذكاء وكبرياء لا يقهران في ذلك الوقت، فسرتُ جبروتها كدليل على القسوة الطبيعية الفطرية، أما الآن فأفسرها كدليل على مرارتها ورغبتها في الدفاع عن النفس لا أكثر.

ببساطة شديدة كانت تخاف أن أقوم بعمل مخل أو شائن، هذا بالإضافة إلى إحساسها المتأصل بالذنب لأنها المسؤولة عن إنجاب ذلك القطيع من المخلوقات المنتميات إلى الجنس الأضعف، قليل القيمة، وبينهن أزعج وأشيطن فتاة في العيلة، وهكذا. فقد كانت هي نفسها تعاني ضغوطا لا ترحم، لكن كبرياءها ما كانت تسمح لها بإظهار مشاعرها الدفينة، فبكاؤها الشديد، وقدرتها الفطرية على رواية الحكايات وتمثيلها أثناء القص، تمكنت من تبطين مخاوفها والتظاهر بصلابة الفولاذ ورسوخ الصخر. وفي حقيقة الأمر، كانت تخفي تحت تلك الهالة من الكبرياء والعظمة، قلبا مليئا بالمخاوف والإشفاق على الذات.

كانت تحس أنها تستحق أفضل من ذلك، ثماني بنات وولد واحد، ولد واحد، كانت تعتبره الأجمل والأذكى والأقوى في العائلة، بل في محيطنا كله، وكان الجميع يعاملونها كما لو كانت ملكة متوجة، وكانت هي تمثل ذلك الدور وتتمثله. ولكن، وسط ذلك القطيع من البنات، فقد كانت تعاني إحساسا راسخا بالذنب لا يقهر.

صدى تصرفات وأحاسيس الوالدة

أما أنا، فقد التقطت إحساسها وتجرعته. فمهما تظاهرت أو أبطنت أو موهت، كنت أحس بما تخفيه، وبطريقة ما نقمت علي لاكتشافي أسرارها. وأنا بدوري نقمتُ عليها لأنها لم تقبلني أو ترضى بي. واتهمتها بالنفاق والقسوة. وفي وجهها جاهرت بكل ما أحس به وعانيت منه. وصحت بحقد ومرارة، وبقلب يعصف

بالأنواء: "لستِ أمي، أنتِ بلا قلب". وقد كنت السبب في بكائها أكثر من مرة، فأقسمت مرارا وتكرارا أن تقوم بتكسير رأسي. وبإخلاص شديد حاولت. وحين فشلت، أرسلتني إلى مدرسة داخلية في القدس تديرها أقسى الراهبات وأعتاهن- راهبات صهيون، وهؤلاء أيضا فشلنَ فيما لم تفلح هي فيه، ولهذا توجب عليهم أن يقحموني في زواج تعسفي متسرع كسر قلبي، لكنه لم يكسر رأسي.

زواجي كان مدمرا حزينا.. زواجي كان تعيسا مدمرا، وقد عانت منه ابنتاي كما عانيت أنا وجميع أفراد عائلتي. وبتشجيع متواصل لحوح من أهلي تركت. وقد كنت بحاجة إلى تشجيع، فقد كان ينقصني الحزم وتحديد الهدف. وبرغم ضغوطاتهم وإلحاحهم طوال 13 سنة لم أستطع حسم الموقف. وهذا دليل على أن أقوى النساء- إذا جاز التعبير عليّ - يضعفن أمام الأمومة والخوف من اتخاذ القرار، فقد اعتدنا نحن النساء منذ الطفولة- أن يأخذ أحد عنا القرار. ولهذا نتراوح ونحن مكاننا، ونستبدل الفعل بالقول والتنفيذ بالآهات والدعوات واللعنات.

حلمي مراد .. طوق النجاة

إلى أن جاءت النجدة على شكل رسالة تلقيتها من حلمي مراد الذي كان يرئس تحرير سلسلة كتابي الصادرة عن دار المعارف في القاهرة. وفي ذاك الوقت، كانت دار المعارف هي الأكبر والأشهر، لا في مصر وحدها، بل في العالم العربي بأسره. وهذا بالطبع أفقدني صوابي، ففي رسالته قال لي حلمي مراد إنه يرى فيّ تباشير روائية عظيمة. وقد صدقت ذلك، وأردت تصديق ذلك، وبكل قلبي آمنت به، فقد كنت بحاجة إلى إيمان. ويشهد الله أني عملت بكل قواي- طوال أكثر من 30 عاما- كي تصدق نبوءته فيّ. حاولت، وما زلت أحاول، وأظل أحاول حتى الموت. فهذا في نظري معنى الحياة وقيمتها، أن نتشبث بشيء ما يضيء الحلم ويشدنا نحو الأعلى، نحو الآفاق ويسحبنا من ضيق المكان فنتجاوز قيم الماضي وحدود الذات. نحن من الجنس الأضعف؟ هذا واقع. بما ورثناه من تقييمات وتفسيرات وحجج وروادع وقوانين، هذا واقع. لكن الواقع يتغير، وبأيدينا. هذا ما بت أومن به.

رغم الآلام، تمخض زواجي عن إنجازين. فمن ناحية منحني طفلتين جميلتين أشبعتا عواطفي وحاجتي للدفء وحنان الأمومة. ومن الناحية الثانية، أتاح لي فرصة تركيز طاقاتي على القراءة ورسم الوجوه. فأثناء غيابه المتواصل، ما كان باستطاعة أي شيء إنقاذي من بؤرة نفسي وضيق المكان إلا عالم الألوان والكلمة. وقد عشت هذين العالمين بكل أشواق قلبي المحروم. ومنهما تعلمت عن الحياة والناس ما لم يكن باستطاعتي تعلمه من أي كان أو أي مكان. فقد وثقت بما جاء في تلك الكتب، ووثقت بأحكامي عليها. فأن أكون حرة في اختيار موقفي من أية فكرة أو شخصية، دون وجود أحد يأمرني أو ينهاني عن الإحساس أو التفكير في أي اتجاه، جعلني أحس كما لو كنت نخلة ترتفع في الأفق وتتمايل حسب موسيقى أثيرية تطلق روحي من معقلها فتطير بعيدا وتحلق فوق الهضاب ومروج الربيع. كنت صبية، وكنت شقية، وكنت أحلم أن يأخذني حلم الألوان والمشاهد عبر مسافات خرافية ودول وبقاع وحضارات حتى أنسى.

حلم يأخذني إلى عالم خالٍ من القيود

وكان لي ما أحلم به، إذ اكتشفت أني قادرة على الإبحار والطيران والتجول، دون أن أبرح بيتي أو أصرف قرشا من جيبي. كان باستطاعتي زيارة أماكن بعيدة، والتسكع في شوارع غامضة غريبة، والتواصل مع أناس

مليئين بالعواطف والأحلام والأفكار، دون أن أترك بيتي. واكتشفت قدرتي على عيش حيوات مختلفة من خلال الروايات وأبطال القصص. اكتشفت أني قادرة على تغيير ملامح وجهي مع كل كتاب وكل مؤلف. كان باستطاعتي أن أكون الآخرين وأنا ما زلت نفسي. وهكذا انتزعت سعادتي رغما عنهم. وما كان لأحد أن يأخذ مني ما أملك وذاك العالم في أعماقي. وما كان أحد ليتمكن من اتهامي بالتزوير أو التدمير وكسر الناموس وقدس الأقداس.

كنت أقيم الدنيا وأقعدها بمخيلتي

وكنت أغامر وأناور وأقيم الدنيا وأقعدها بمخيلتي. ولم يكمشوني ولو مرة، ولا عوقبت ولا مرة، ولا ضبطوا جرمي الغامض. وملأه الشك مما أبطن، وما تمكن من إثبات أية جنحة. فأحال حياتي وحياته نار جهنم. وتركته حين تأكدت أني أعرف ماذا أريد وما أنوي. أريد نبوءة حلمي مراد، أريد الكلمة والفكرة، أريد اللون وأجنحتي والموسيقى، أريد أن أنقل للدنيا نغمة صوتي، نظرة عيني، وبواطن عقلي وضميري. أريد الدنيا أن تعرف ما يعنيني، ما يؤلمني، ما يسعدني، وما يبكيني. أريد الدنيا أن تعرف أني أنثى، أني الأنثى، بعقل وضمير ومشاعر وروح شفافة تحب الناس وتحب الخير وتقول الكلمة لوجه الله، ولو كان الثمن حد السكين.

سحر خليفة وثنائية الوطن والمرأة

لسحر خليفة علاقة وثيقة بالمرأة والوطن، تجلت في معظم كتاباتها حول الحب والإنسان، ولم تكن سحر خليفة ناقمة وليس لديها أي إحساس بالمرارة رغم المعاناة التي عانتها، وإنما كانت إنسانة ثائرة ومناضلة مفعمة بالأمل كما كانت تتمتع بطموح فوق عادي وإرادة تهز الجبال.

ورغم أنها كانت رومانسية وتعشق الأدب والحياة والموسيقى والتمثيل والحياة المفعمة بالفكر والحيوية كما كان عقلها قادر على العمل دائما على عدة اتجاهات.

وكانت سحر تتمتع بقدرات هائلة. فعندما تدخل أي اجتماع أو لقاء كنا نشعر بشحنة كهرباء من خلال حيويتها المعدية، وعندما كانت تأتي إلى مكتبة البلدية، والذي أصبح مكانها المفضل وملجأها للقراءة الهادئة، كانت تمر عليّ بكتبها المحملة من مكتبة بلدية نابلس العريقة حيث تحمل إليّ الكتب القيمة التي لا أعرف عنها شيئا. كما كانت تطلعني على مؤلفات أنيس منصور، ونجيب محفوظ، وسيمون دي بفوار، وجون بول سارتر وغيرهم من العمالقة.

وكانت بعض هذه الكتب تمتاز بالصعوبة وتحتاج إلى تفكير وقدرة على التواصل مع أفكار كُتّابها، كما كانت سحر ترتمي بأحضان تلك الكتب.

كانت سحر جارتي، الباب بالباب. لا يفصل بيننا غير شريط أسلاك شائكة. وكانت سحر تسكن بفيلا جميلة مُلك لعائلة السلفيتي، كما كانت الفيلا التي نسكن بها مُلك لنفس العائلة. والواقع أن هذه المنطقة هي أجمل أحياء نابلس وليست بعيدة عن جامعة النجاح الوطنية وهي تعرف باسم رفيديا.

إلهام من عالم آخر

يقول العرب البيوت عتبات. أي أن البيت يحمل السعادة والحظ والإلهام. وهذا ما كنت أشعر به نحو سحر. كنا مبهورين أمام هذه العبقرية المميزة في رسم اللوحات وإلقاء الشعر والأدب والموسيقى والفن

وغيره. فقد رسمت من شباكها جبل عيبال الذي أمامها، كما أبدعت في رسم جبل جرزيم الذي هو على الطرف الثاني من المدينة وهو يحتضن المدينة التاريخية التي سكن بها الرومان وسموها نيابوليس أي المدينة الجديدة، في هذا البيت الذي سكنته سحر خليفة أعطاها إلهاما مميزا كأنه هبة من السماء.

كنا نقول لها يا سحر من أين لك هذا الإبداع في الرسم، وكل هذه المواهب من شعر وموسيقى وصوت جميل وإلهام في الكتابة وهذه هبة من السماء . عندما سكن الكاتب المبدع والشاعر د. عبد اللطيف عقل البيت بعد ما تركته سحر كنا متأكدين أنه في سر في هذا البيت.

حتما أرواح ملهمة وعبقرية تسكن في هذا البيت. لأن الإبداع والإلهام في الشعر والأدب عند د. عبد اللطيف عقل وعند د. سحر خليفة اللذين سكنا هذا البيت. كنا نقول في نابلس إنه يوجد سر وجودي في هذا المكان. الاثنان أكملا التعليم العالي والدكتوراه في أمريكا والاثنان أصبحا من الأدباء العالميين، وأعطيا فلسطين أروع الإنتاج الأدبي والفكري، ويجب أن تحفظ بلدية نابلس هذا البيت الذي سكنته د. سحر خليفة والذي سكنه د. عبد اللطيف عقل حيث تفجرت موهبتهما الأدبية والفكرية في هذا البيت اللغز.

لغتنا الجميلة

سحر خليفة كانت تحثني أن اقرأ باللغة العربية وأن اذهب معها إلى مكتبة بلدية نابلس العريقة. لغتي العربية كانت ركيكة بسبب الدراسة بمدارس فرنسية عند الراهبات في القدس الغربية، حيث درست قبل خروجي من إسرائيل إلى الأردن. أما سحر فقد درست بدورها في مدارس الراهبات في القدس العربية وبالذات في أرقى المدارس كمدرسة راهبات صهيون. أخذتني سحر إلى عوالم أخرى بعيدا عن الظلم الذي يقع علينا، الظلم الاجتماعي، والظلم السياسي والظلم الطبقي. وأخذتني إلى الكتب والثقافة العربية والأدب المترجم.

ذكريات حميمة

وفي أجواء السكون في البيت ليلا حيث الأطفال نيام وحيث السكون والسكينة كان صوت خافت لفيروز وهي تنشد نحن والقمر جيران وكنت أهرع إلى المذياع لكي نسمع أنا وزوجي أغاني فيروز العذبة، ولكن لم نجد في المذياع أي أثر لصوت فيروز، ونذهب مرة أخرى إلى البستان لسماع الأغاني البديعة لفيروز، ولكن بدون فائدة، الإذاعات كلها لا أغاني لفيروز فيها، الصوت يعلو "نحن والقمر جيران".. في الليل في أجواء السكون على ضوء القمر كانت سحر تقرأ قرب النافذة.. وأنا أصيح وأبحث في المذياع ويعلو صوت فيروز ولكن كانت فيروز نابلس.. من لا يعرف سحر خليفة لا يعرف المواهب الكامنة بداخلها ومن أين أتت بهذا الصوت الذي يفيض سحرا وعذوبة، فكأنها فيروز في كل ما تغنيه بصوتها المخملي في سكون الليل عندما تغني أنا والمساء.

أنا وسحر خليفة

بيني وبين الروائية الفلسطينية المبدعة سحر خليفة صداقة عمر، ورفقة درب، وذكريات وحكايات.. وأيام وشهور وسنوات من الألم والأمل، والسعادة والشجن، والهزائم والانتصارات، والدموع والجراح والآلام والانكسارات.

سحر خليفة الروائية النابلسية ابنة بلدي.. التي تطوف بموهبتها الفَذَّة آفاق العالمية.. بحسها الرفيع.. وقدرتها الفائقة على الالتقاط، وذكائها الفطري وإلهامها الأدبي القادر على حشد عشرات بل مئات التفاصيل الصغيرة.. ومن ثم، نسجها ببراعة.. في عمل روائي متماسك.. محكم بمقدرة فنية من وحي ثقافتها وإلهامها وتجاربها.. لتقدم لنا عملا فنياً.. جديراً بأن يحمل اسمها.. واسم نابلس واسم فلسطين.

وجه الحقيقة الوضاء

هل أقول إن سحر خليفة أهم روائية في العالم العربي.. أو في التاريخ الأدبي المعاصر..؟

إنني لو فعلت ذلك لما جاوزت الحقيقة.. فالرواية فنّ صعب.. بقدر ما هو ممتع وبنّاء.. وسامٍ.. بقدر ما هو جديّ ومركب.. وممتنع ونادر.

وعندما أستعرض الروائيات المعاصرات في العصر الحديث؛ لا أكاد أذكر إلا سميرة عزام، وغادة السمان، وليلى بعلبكي.. ونوال السعداوي.. وكولييت خوري.

وأنا لست ناقدة أدبية ولا أستاذة أكاديميّة، ولم أتخصص يوما في الأدب المقارن، ولكن قراءاتي لروايات سحر تجعلني على ثقة من أنني أمام موهبة روائية عبقرية فلسطينية الدم والروح والذوق والانتماء.

النشأة.. في أحضان مدينة الشمس والجبال

ولدت سحر عدنان خليفة في مدينة نابلس عام 1941، ودرست في مدرسة الخنساء بنابلس، ومن ثم في مدرسة خاصة بالقدس، ثم في مدرسة الراهبات الوردية في عمان.، وحصلت على البكالوريوس في الأدب الانجليزي من جامعة بيرزيت، التي عملت فيها مديرة للأنشطة الثقافية ومن ثم مديرة للعلاقات العامة وكان ذلك لمدة ثلاثة أعوام من 76 - 1978، وعملت بعد ذلك رئيسة لتحرير مجلة "غدير" التي كانت تصدرها الجامعة من 74 - 1977، ثم عملت مؤسسة ومديرة لمدرسة الحنان النموذجية في نابلس من 66 - 1969 كما عملت مترجمة في سفارة نيجيريا في طرابلس بليبيا من 72 - 1973، ثمَّ عملت مترجمة في شركة شمال إفريقيا للتأمين في طرابلس 1970 - 1972.

حصلت على درجة الماجستير من جامعة "شبل هل" في ولاية كارولينا في الولايات المتحدة الأميركية عام 1983، كما حصلت على درجة الدكتوراه في الدراسات النسوية من جامعة "أيوا- أيوا ستي" في الولايات المتحدة الأميركية ودراسات نسوية لمدة ثلاثة أعوام... إن سحر نالت درجة البكالوريوس من جامعة بيرزيت.. في نفس العام الذي تخرجت فيه ابنتها.. فقد التحقت سحر بالجامعة بعد مشوار زواج طويل ومن ثم لعبت أوراقها بإصرار وعناد ومثابرة!

في عام 1988 أسست مركز شؤون المرأة والأسرة بنابلس، وما زالت تتولى إدارته، كما تتولى الإشراف على المنشورات التي يصدرها المركز. ومنذ العام 1997 وهي تتولى تنفيذ إنتاج برنامج التثقيف التلفزيوني للمركز، وقد أسست وأدارت مركز شؤون المرأة في غزة من 1991- 1994.

الجرح الفلسطيني على قائمة الإبداع

نشرت أول رواياتها "لم نعد جواري لكم" عام 1974 عن دار المعارف بالقاهرة والآداب في بيروت.. وقد حولت هذه الرواية إلى مسلسل إذاعي في الشرق الأوسط، ومن ثم إلى مسلسل تلفزيوني في القاهرة عام 1982.

صدرت روايتها الثانية "الصبّار" عام 1976 عن أربع دور نشر في القدس ودمشق وبيروت.

وصدرت روايتها الثالثة "عباد الشمس" عام 1980 عن أربع دور نشر في القدس ودمشق وبيروت.

وصدرت روايتها الرابعة "مذكرات امرأة غير واقعية" عام 1986 عن دار الآداب- بيروت.

وصدرت روايتها الخامسة "باب الساحة" عن دار الآداب- بيروت عام 1990.

وصدرت وروايتها السادسة "الميراث" عام 1996 عن دار الآداب.

وصدرت روايتها السابعة "صورة وأيقونة وعهد قديم" عام 2002.

وصدرت روايتها الثامنة "ربيع حار" عام 2004.

وصدرت روايتها التاسعة "أصل وفصل" عام 2009.

وصدرت رائعتها "حبي الأول" عام 2010.

ترجمة روايات سحر خليفة

تُرجمت روايات سحر خليفة.. إلى عدة لغات ومنها:

- الفرنسية
- الألمانية
- الانجليزية
- الهولندية
- الاندونيسية
- الاسبانية
- الايطالية
- العبرية

مما لا شك فيه أن الروائي.. أو الفنان بصفة عامة.. يعكس في إنتاجه الفني أو الإبداعي.. كثيراً من ذاته.. والروائي بصفة خاصة كثيراً ما يتوحد مع أبطاله أو بطلات أعماله.. ولا يصعب على الناقد أو حتى على القارئ المثقف أن يلمح سمات التطابق بين البطل في الرواية.. وحقيقة الكاتب أو الكاتبة وسحر.. نجدها بصورة قوية وصريحة في شخصيات رواياتها.. وقد يكون ذلك إلى درجة التطابق أحياناً.. وقد يكون ذلك لفرط الصدق.. وبراعة استبطان الشخصية ومعايشتها.. فالفن لا يكون نقلا كربونيا عن الواقع.

ولو جاز أن نقول.. إن سحر.. هي هذه الشخصية أو تلك.. لكان ذلك معناه.. أن لسحر شخصيات عديدة. الفن يجمل الواقع ويخصبه، ويهذبه، ويسمو به ويجعله أفضل وأجمل وأنظف وأبدع. وهو لا يقدم ما حدث فعلا.. وإنما ما يمكن أن يقع.

ولكن في كل بطلة أو شخصية.. جانب أو هامش أو صفات من الكاتبة.

ليس من السهل أن نقول إن سحر هي "نضال" في حبي الأول أو "عفاف" في مذكرات امرأة غير واقعية.. أو "حسنا" في حبي الأول، ولكن هناك ملامح مشتركة.. وسمات متطابقة.. وبصمات لا يمكن إلا أن نسلم بتطابقها.

ولا أحجب تعاطفي معهم

عندما كنا نرى الأصوليين يوجهون ضربات موجعة للاحتلال، ويقومون بأعمال جريئة ضد الإسرائيليين معلنين الثورة على تصرفاتهم المذلة لشعبنا فإنني كنت أتعاطف معهم لأن كل تناقض بيننا يجب أن نتخطاه.. لصالح التناقض الحقيقي الجوهري مع العدو المحتل. يجب أن نقاتل جميعا يدا واحدة وهدفا واحدا لأن فلسطين يجب أن توحدنا.

أوسلو .. خطأ أم خطيئة

ظن بعض الناس أن اتفاقات أوسلو ستحل كل المشاكل، ولكن هذا كان خداعا، لقد حاولت هذه الاتفاقات التعتيم على مستوى مجتمعنا، والتغطية على حقيقة الصراع مع المستوطنين والإسرائيليين بصور عامة. وكان الطرف الآخر يدعي أنه سيمنحنا الحكم الذاتي، ولكنه قام بنصب الحواجز في جميع أنحاء المنطقة. إن اتفاقات أوسلو لم ترتكز على أسس جدية تعكس الواقع لأن صياغتها لم تكن واضحة.

لا توجد لدينا ضمانة بإنهاء الاحتلال من خلال المفاوضات. لقد قال شامير: سأتفاوض مع الفلسطينيين عشرة أعوام دون الوصول إلى أي نتيجة.

الرجال هؤلاء المخلوقات الملائكية

من أجل تحرير المرأة، لا بد من التنسيق والتكاتف لكي نساهم في تأهيل النساء غير المتعلمات، لنوصل لهن في النهاية أفكارنا وهذا ما نقوم به في المركز النسائي في نابلس. فعندما بدأت عملي قبل عشرين عاما اتهموني بمعاداة الرجل، وقالوا إني امرأة متعصبة لأنوثتي، امرأة تسعى إلى "تلبيس" مشاكلها العاطفية والجنسية للرجال، تلك المخلوقات "الملائكية". أما الآن فقد أصبحت آلاف النساء يفكرن مثلي، وليس ذلك في فلسطين فحسب، بل في جميع أنحاء العالم العربي.

النقد الذاتي .. يصب في منبع القوة

يوجد في العالم العربي ستمائة ألف "نهلة" وعائلاتهن تستغلهن، ولم يتعرض الأدب العربي أبدا لهذه الناحية.

هناك أشياء تعتبر من المحرمات في العالم العربي، ومن بينها قضية استغلال العائلة للنساء، إننا لا نريد أن نتحدث عن حقوق الإنسان الفلسطيني إزاء العرب وإسرائيل فحسب، بل علينا أن نناقش هذه المسألة في مجتمعنا. إن النقد الذاتي يصب في منبع القوة، من المستحيل أن تتم عملية التغيير دون التوعية القاسية، وطالما كنا نكنس القاذورات تحت السجادة فإننا لن نتقدم أبدا.

العودة إلى الجذور

أعود اليوم إلى دار العيلة لأقوم بإصلاح ما يتصدع ونخره السوس، وأجعل من الدار، دار العيلة، مكانا يسكن، شيئا يذكر وله تاريخ. ما عدت أطيق جو الغربة والطيارات والمطارات والبدء من جديد في كل مكان أذهب إليه، هناك عمان، قبلها بيروت، ثم لندن، ثم باريس، وواشنطن، ثم المغرب وأخيراً جئت إلى الضفة الآن وأنا أتذكر تلك الأيام، وأتذكر ذلك الوداع وذاك الموقف، أقول لنفسي: كم ضاع العمر بلا ثمرة! كم خفق القلب بلا إحساس، لو ظل حبيبي، هل كنت أمر بتلك الخيبات؟ هل كنت أضيع بهذا العالم بحثا عن بديل لكن ذلك الحبيب لا يُستبدل ولا يتجدد.. مرة في العمر، فقط مرة هو حب الصِّبا وربيع القلب وحلم التغيير في ذلك الزمن، ذلك الماضي. كنت وما أزال أومن بالحب، وأومن بالثورة والتغيير، وكان الحلم يغطي المساحات كما الأحراش والوديان.

أشخاص من صنعي

بعد عشرين سنة، وربما ثلاثين سنة أو ربما أكثر بقليل، ظلت علاقاتي بدنيا الناس تتخبط، لأني أتعامل مع أشخاص من صنعي. أصنعهم من الكتب ومخيلتي، وأحللهم حسب ذوقي واجتهادي، وأفسر طوابعهم، وطوالعهم بما يحلو لي وما يعجبني، أو ما يدور في رأسي من فكر وأحلام وخواطر، فأعلو وأرتفع مع التحليل ثم أغرق، وأرى زوايا ليست هناك، وأبني توقعات على ما أرى ثم تأتي الصدمة كالإعصار.

ومع كل حدث، ونقلة وحوار نلتقي مع سحر.. مع اللغة الهادئة السلسة الجميلة التي تدخلك في أجواء الخيال، والحب بعيدا عن هموم الحياة، لتذكرنا بجماليات وأجواء سحر وسحر روايات سحر خليفة الأولى.. إن سحر تغافلنا أحيانا وتعود إلى زمن بعيد وأيام خوالٍ وعهد قديم لا يزال يتفاعل في داخلها، يدفعها إليه بعد هذه السنين من الجفاء والهم والقطيعة، زمن كانت فيه تنطلق من ذاتها لذاتها فتسمو وتشف وتحلق وتضيع مع ذاتها في ذاتها.. كثيراً ما ترتد سحر خليفة إلى ذاتها الجميلة، رغم أنها لا تنسى أن الواقع الذي يحيط بها واقع ألم وقهر وظلام.

خطوط وملامح.. وسمات جمال نادر

سحر خليفة.. إنها روائية ترى الجمال في فلسطين، وتتهمش نقيضه، إنها تلك الأجزاء اللامعة المحتشدة في أرواح تعشق المحبة والوطن والغناء، فهي العاشقة والمقاتلة والأم، وصاحبة الرؤيا والبصيرة، إنها تجسد جمالها في أمومتها من جهة وفي فنها وإبداعها من جهة أخرى. فالفن يضيف إلى الحياة معنى آخر، ورؤية أعمق أكثر كثافة وجمالا. في "حبي الأول".. آخر رواياتها، تصل إلى أفضل أعمالها، مستعيدة أطياف فلسطين، التي كانت بإتقان جميل لم تعرفه الرواية الفلسطينية إلا نادرا.

إنني أرفض هذه الجائزة

وقد رفضت سحر خليفة تسلم جائزة "سيمون دي بفوار" لتحرير النساء، لأن لجنة التحكيم اشترطت إشراك الكاتبة الإسرائيلية "تسفيا جرينفيلد" بالجائزة.

وقالت: إن اختيار الكاتبة الإسرائيلية غير المعروفة، جاء بناء على مقالة مطولة كتبتها تنتقد فيها موقف اليهود المتشددين من وقوف النساء أمام وسائل النقل المختلفة في صفوف خاصة غير تلك التي يقف فيها الرجال.

ووجهت سحر خليفة رسالة للقائمين على الجائزة، أكدت فيها اعتذارها عن عدم قبولها لرأيها.. وقالت: إن نصف جائزة يعني نصف اعتراف وتقدير، وأضافت: هذا يعني أنكم لا تعترفون بي، ولا تقدرونني ككاتبة وناشطة نسوية ذات انتشار واسع عربيًا وعالميًا إلا إذا نلت الدعم والمباركة من الجانب الإسرائيلي.

ورأت سحر أنَّ شرط المناصفة مع الكاتبة الإسرائيلية قيدها وأحاطها بحصار جديد، معتبرة أن التحرر من أي قيد أو شرط أهم وأغلى من كل جوائز العالم.

وتستذكر.. أن جائزة نوبل عرضت على محمود درويش شريطة أن يقتسمها مع شاعر إسرائيلي. ولكنه رفض.

إنَّ لجان الجوائز الأوروبية والأمريكية تتعمد إيهام الفلسطينيين إلا مجال للاعتراف بإبداعهم، إلا من خلال تقاسم استحقاقاتها مع الإسرائيليين.

وتقول سحر:

إن سيمون دي بفوار بالنسبة لها معلم تاريخي، ومعلمة تعلمنا منها الكثير، وإن كتابها "الجنس الآخر" هو أعظم وأروع ما كتب عن المرأة، سواء على المستوى النفسي أو الجسدي أو الاقتصادي والمهني.

وتقول سحر:

كانت سيمون دي بفوار بالنسبة لي حلما، وأملا، وتمثالا أحطته منذ صباي البعيد بالإجلال والإعجاب والتقديس، ولكني أرفض الجائزة التي تحمل اسمها وأقول "لا" دفاعا عن مبادئي..

رواية الضياع بامتياز

حازت سحر خليفة على جوائز عالمية عديدة.. من "مورافيا" إلى "ثرفانتس"، ولكنها المرة الأولى التي تكرم فيها الأديبة الفلسطينية عربيا.

لقد فازت بجائزة نجيب محفوظ التي تمنحها الجامعة الأمريكية في القاهرة عن رواية تحكي ضياع القدس وتحمل عنوان "صورة وأيقونة وعهد قديم".

ولما سُئلت سحر: هل حصلت على الجائزة لأسباب سياسية بحتة..؟

قالت:

إن السؤال يجيب أن يوجه إلى لجنة التحكيم الجالسة إلى جوارها.

وهنا أجاب مارك لينز، مدير قسم النشر في الجامعة الأمريكية:

ليس صحيحا، نحن لا نمنح الجائزة لأسباب سياسية فقد منحناها قبلا لروائيات من بلدان عربية مختلفة مثل أحلام مستغانمي من الجزائر وهدى بركات من لبنان.

وقالت سحر:

إنها أول جائزة عربية أحصل عليها، على الرغم من أنني حصلت على جائزة "البرتو مورافيا" الايطالية، وعلى جائزة "ثرفانتس" الاسبانية، حتى السلطة الفلسطينية لم تمنحي أي جائزة لأنني كتبت رواية "الميراث"

التي تتناول نقد السلطة. وأعتقد بأنني أستحق العديد من الجوائز. وأعتز بجائزة تحمل اسم نجيب محفوظ على الرغم من أنها جاءت متأخرة.

مجبول بالتراب والروح والقلب والرصاص

وقالت سحر:

إن هذه المناسبة ذكرتها بمشهدين لا تنساهما، الأول منذ ثلاثين سنة، عندما اقترحت عليها أستاذتها الدكتورة حنان عشراوي تقديم مخطوط "الصبّار" إلى الدائرة العربية في وزارة التربية والتعليم تحت الاحتلال. ولكن مدير الدائرة قال: إن الرواية لا ترقى إلى مستوى الأدب.

أما المشهد الثاني فهو عندما جاءت بروايتها إلى القاهرة لنشرها، ولكن الناشر رفضها أيضا بحجة أن الرواية مجهولة الجنس والهوية. واعتبرت الكاتبة أن الأدب ليس حلية نعلقها في صدر البيت، وليس شكلة على الرأس، بل إحساس أعمق، مجبول بالتراب، بالشوارع، بهموم الناس، برصاص المحتل والمدافع، بالضحايا ودم الثوار وأيضا بالحب والتمني وحنين القلب وجمال الروح، والتصدر للكآبة بأجنحة الحلم، وأضافت: الأدب بالنسبة إلي ليس نزهة، بل جهد وأجنحة ومرايا وعتاب دائم للذات، وسماء ماطرة، وقذائف ومآذن في أرض ما عرفت إلا الدم.

وقالت: إن الهم الفلسطيني كبير، انه يحتاج إلى طابور طويل من المبدعين للتعبير عنه.. وهي في روايتها التي تتحدث عن ضياع القدس تحاول أن تتكمش فيها أجواء هذه المدينة بحثا عن طريق، وبحثا عن إجابة.

من سيرثي القدس؟

قدر لأهل فلسطين أن يظلوا ينزفون حربا وسلما، بزوج تركي أو بريطاني أو أردني أو إسرائيلي أو فلسطيني غير متحرر كليا، ولكن سحر تقول إن نزيف شعبنا لا يترك الآخرين يحيون بأمان، فشعورهم أنهم مظلومون يدفعهم باستمرار إلى الرفض والمقاومة. والثورة قد تهدأ حينا، وقد تشتد حينا.. وهذه هي الحقيقة الوحيدة في تاريخنا المعاصر.

حبي الأول .. الموهبة تزداد تألقاً

في روايتها الأخيرة "حبي الأول" التي صدرت عن دار الآداب في بيروت عام 2010 تتألق موهبة سحر خليفة.. وتبدو.. مسيطرة على أدواتها الفنية بأصالة وفن وثقة.. وعبر 391 صفحة من القطع المتوسط وستين فصلا.. تقدم سحر خليفة حكاية حب مُبرَّح، يتجسد في عدة وجوه، وجه يتراءى في قصة عشق طفولتي، تبرعم في مرحلة الصبا وربيع العمر، وعاد لينبثق ويتجدد مع ذبول الخريف، ووجه وطني يتنافس فيه العشاق على الفداء والبطولة واختراق المحال.

في هذه الرواية المتعددة الشخصيات والمراحل والأزمنة تتجلى قدرة سحر خليفة الفنية على الاستبطان وصهر الماضي والحاضر في بناء درامي مركب يستمد الحلم من الذكرى، ويعيش الأزمة في الواقع ويجد الأمثلة والعبرة في حياة الناس وعبر التاريخ.

أثبتت سحر في هذه الرواية قدرتها على الإفادة من التاريخ والطبيعة والإنسان والتراث والجغرافيا.. ونسجت رواياتها بصبر وحكمة وفن وأصالة.. وبروح تفيض بالإحساس والجمال.. وبقدرة عبقرية على الالتقاط والحشد وتقديم البيئة الفلسطينية والروح والهوية الفلسطينية.. والنضال القومي المعطر بشذا الفداء.. والأصالة والشموخ.

نسجت من كل هذه العناصر.. وبلغة عذبة سلسة وإيقاع درامي جذاب.. وتشويق أخاذ هذه الرائعة.. التي ستصنع مشكلة كبرى لها.. فماذا ستكتب سحر بعدها؟ وهل هي قادرة على تجاوز آفاق هذا الإبداع الذي استقته من نبع فؤادها.. ومن أعماق وجدانها.. وفكرها.. وكيانها.. وهي تلملم جزيئاته البديعة من روابي القدس وجبال نابلس وقراها.. وشمسها وشجرها ونباتها وتاريخها.. وأصالة أناسها.. وروعتهم وصدقهم.. ودموعهم.. وحساسيتهم.. ونبض وجدانهم الذي تجسد في هذا العمل الأدبي الرائع، الذي جاء بلغة بديعة فائقة جعلت بعضهم ينساق وراء سوء ظنه.. كأنه يستكثر على سحر هذه الموهبة البديعة.

ومن ذكرياتي التي لا أنساها مع سحر خليفة عشية حرب 67 عندما خرجنا إلى الشارع أثناء منع التجول لإنقاذ أهالي قلقيليا كان معنا الحاج حسين صبري رئيس بلدية قلقيليا مع آلاف من اللاجئين الهاربين من الموت والقصف أثر هدم دايان لقلقيليا وتوجهنا سحر وأنا ورئيس البلدية لمقابلة الحاكم العسكري لطلب المعونة السريعة. سأل نائب الحاكم العسكري موشيه فيش سؤالا:

- هل أنتم من الذين آمنوا أم من الذين كفروا؟

في لحظة البرق سحر أجابت على الفور:

- نحن من الذين فكّروا.

هذه الإجابة اللماعة هي دليل على أن سحر هي الإنسان المفكر. وإذا سألتني سأكتب مجلدات عن نابلس وأجوائها وثورتها وعن سحر وكل القيود التي كسرتها من قيود الرجل الشرقي والعقلية الرجعية. وهوجمت في الجوامع وكانت مهددة من قبل المتشددين أثناء الانتفاضة الأولى لأنها دافعت عن قضية المرأة والشرف، لأن المرأة كانت تقتل من قبل أناس مجهولين باسم الثورة وترمى بالحاويات ويقتلونهن بدم بارد في بيوتهن.

وقفت سحر خليفة تدافع عن المرأة مثل هدى الشعراوي في مصر وقالت لهم كفى وهاجمتهم بالصحافة وهددوها بالقتل. واستنجدت سحر خليفة بفيصل الحسيني واحتمت به بين عائلته وفي بيته في القدس. كانت المرأة تقتل تحت شعار الشرف في الانتفاضة الأولى ووقفت سحر خليفة تشجب هذا العمل في كتاباتها. وكانت سحر خليفة تنشد الربيع في أيام الربيع على تلال نابلس بين جرزيم وعيبال. وأعطت صرخة المرأة العربية القوية ارحموا نساء وطننا. وأوقفوا قتل النساء. نابلس جبل النار استمدت منها سحر خليفة الصلابة والاعتزاز بالنفس والكرامة والعنفوان والجرأة واستمدت من جبل النار شموخ جبل جرزيم التي عاشت أحداثها سحر خليفة من خلال جدتها وأمها والمناضلين الثوار، ثوار العام 1936 و 1948 التي توصف ثورة عبد القادر الحسيني والثوار وشاء القدر أن تطلب الاحتماء من ابن عبد القادر الحسيني الذي كتبت عن نضاله والثورة التي قام بها عام 1948 في قصة حبي أروع قصة كتبتها سحر خليفة عن الثورة الفلسطينية التي قام بها عبد القادر الحسيني.

(2012/8/10)

ممدوح صيدم ورفيقة دربه جميلة

من مقاعد الدراسة إلى خنادق القتال

كان طالباً في الثانوية عندما نظّمه أستاذه صلاح خلف

ليصبح رفيق دربه في تأسيس "فتح"

عام 1994 عدت إلى أرض الوطن

وعندما عبرت النهر تخيلت الشهيد عائداً من معركة بيت فوريك

ابتسمَ وأشرقت ملامحه ثم اختفى

ممدوح وجميلة أنموذج رائع لأسرة فلسطينية أنجبت الفداء والوطنية

وسلمت الراية لجيل الأبناء

الغضب الساطع آتٍ

شرب الشعب الفلسطيني من أعدائه مرارة الظلم والقهر والعدوان، وعانى ألوانا من العذاب والألم والتشريد والهوان، بصورة تفوق كل وصف وتتعدى كل خيال.

شعبنا واجه قدرا عاتيا أحمق مجنونا.. ودفع فواتير ظلم شعبٍ آخر دون ذنب أو جريرة.. جاع وتشرد.. أُغتصبت أرضه، وانتهك عرضه، وتشتت في الآفاق..

هذه الأحداث التاريخية المأساوية.. فجرت في جماهير الشباب الفلسطيني المثقف كل براكين الثورة والغضب، أشعلت فيهم جذوة الحقد والانتقام..

أبت عليهم عروبتهم وشموخهم ومبادئهم.. وأخلاقياتهم.. أن يقفوا موقف المتفرج من هذه الأحداث..

لم تهن عليهم فلسطين وهي تذبح بيد الغدر والخيانة على أيدي اللصوص والأفاقين..

هبوا ثائرين.. لقد هانت عليهم الحياة.. ورفضوا أن يطأطئوا رؤوسهم، وأن يحنوا هاماتهم، لمجرد أن العالم كله يحاربهم ويؤازر عدوهم.

في النصيرات على شاطئ الأبيض الأزرق

كان ممدوح في مخيم النصيرات.. يتشرب مرارة الظلم.. والقهر والهزيمة.. وكان داخله يغلي بمشاعر الغضب التي لا بد لها أن تنفجر يوما.

وكانت ابنة عمه "جميلة" في مخيم اللاجئين في رفح.. تشرب من نفس الكأس.. فهي سليلة أسرة صيدم.. العريقة الثرية.. ابنة العز والجاه.. ولكنها الآن تعاني مرارة الفقر والحاجة والتشرد والجوع.

كانت "جميلة" نفسا طاهرة.. أبية.. ثائرة.. تتلقى الطعنات وتقاوم غول الفقر وذل الحاجة.. تكفكف دموع والدتها وتضمد جراحها وتساعد الأسرة وتصارع المحن والأنواء، وتختزن كل ذلك في ضميرها ووعيها.. ليتحول بركان الغضب في يوم قريب إلى عاصفة هوجاء وثورة عاتية ونور ونار..

لم يكن ممدوح.. قد التقى بابنة عمه.. ولم يكن يعرفها.. وهي بدورها.. تسمع عنه وتعرف أخباره.. دون أن تلتقيه. ولكن.. هاتين الروحين.. الثائرتين.. في مطالع الخمسينيات كانت تضج بالثورة.. والغضب يقتلها الشوق، والانطلاق إلى العمل.. إلى التحدي.. والرد.. والقتال.. ويشعل في كيانها وأعماقها ووجدانها براكين الثورة والرغبة في القتال.. دفاعا عن الأرض والعِرض.

مأساة الأرض الفلسطينية التي تجسدت في أحداث النكبة.. أشعلت قوى الثورة في نفوس.. نخبة من الشباب.. الذين تربوا على الخلق والكرامة وعزة النفس.. ورفض الظلم..

أسرة صيدم "العريقة" أنموذج حيّ لهذه النخبة الرائعة.. التي تعرف كيف تقرأ أحداث التاريخ وتعرف كيف تفجر طاقات الغضب والرفض.. نارا ودما.. على المعتدي الأثيم.

الأيام الجميلة التي كانت

في مخيم خمسة.. في معسكر النصيرات.. كانت طفولة وصبا "ممدوح". كان والده ووالدته يقصان عليه ذكريات أيام العز في قرية عاقر.. وبياراتها وخيراتها وأشجارها وبرتقالها وعنبها وسهولها.. كانت أسرة صيدم.. من أعرق وأغنى وأهم الأسر في تلك الفترة.

ولكن الغزو الصهيوني.. والعدوان.. والقهر.. والاغتصاب.. والدماء والدمار.. التي سالت.. أجبرت الأهل على الرحيل عن أرض الوطن.. وفارقوا أرضهم وشجرهم وبرتقالهم وبياراتهم.. وعزهم.. وخيرهم وخيراتهم.. ولجأوا إلى مخيم خمسة.. على تلك التلة الصغيرة التي فوقها مقبرة.. وبجانبها.. أقيمت بيوت المخيم.. ذات الكرميد المهشم والأبواب الخشبية والأسطح الممزقة والجدران المتداعية والمياه الآسنة وحياة الفاقة والذل والهوان والحاجة.

ليس ما أقصه عليكم سيناريو يرتبه مخرج ذكي.. أو ينسقه كاتب صاحب خيال محلِّق.. إنها الحقيقة التي تفوق كل خيال.. وعندما تكتمل أمامكم اللوحة أو الصورة بكل أبعادها.. ستعرفون أنَّ آل صيدم قدموا أنموذجا رائعا في إطار من البطولة يضيء صفحات التاريخ ويهدي للأجيال القدوة والأمثولة.

في مدرسة خالد بن الوليد .. الأستاذ والطالب

ولد ممدوح في قرية عاقر قضاء الرملة عام 1939.

وولدت جميلة عام 1947 في نفس القرية.

في مخيم خمسة.. حيث الفقر والاختناق والبؤس.. نشأ وترعرع ممدوح.. ومن ثم.. ذهب إلى مدرسة خالد بن الوليد.. ليستكمل دراسته الثانوية.

وكان على موعد مع القدر.

كان طالبا في المرحلة الثانوية عندما التقى الأستاذ صلاح خلف.. مدرس اللغة العربية.. وسرعان ما التقى الأستاذ وتلميذه في ساحة ميادين الثورة والشرف.. والأرواح جنود مجندة.. وشبيه الشيء منجذب إليه.. وصلاح خلف قادم من القاهرة من اتحاد الطلبة الفلسطينيين مدرسا للغة العربية.. ولكن في أعماقه ووجدانه وضميره.. رسالة وهدف.. إنه يبحث عن العناصر الممتازة لينظمها.. ويضمها إلى صفوف الثورة.

لقاء وعهد على مبادئ فتح

وقرأ الأستاذ تلميذه.. وجد فيه شخصية قيادية جادة.. وتلمَّس في روحه ووجدانه مقومات ثائر.. شجاع.. ومحارب.. جسور. ولصلاح خلف خبرة بالرجال، وقدرة على تلمس معادن البشر ومعرفة أوزانهم.

ووجد ممدوح.. في أستاذه.. كل ملامح البطل والقائد.. استمع إلى خطبه.. وكلماته.. واستولى عليه ببلاغته وصدقه وبراعته وإلقائه.. ومنطقه الذي يتدفق ثورة وعنفوانا.. وأصالة.. فدخل قلبه ووجدانه وضميره، التقى الثائران على عهد وميثاق وهدف، وما أجمل أن تخفق القلوب في الصدور على وقع الأهداف النبيلة والغايات السامية. كوَّن بعد ذلك.. هذان الثائران.. نواة رائعة.. لمنظمة فتح.. وجمعت الصداقة بين قائدين.. من أروع ما أنجبت الأمهات في فلسطين..

معلم اللغة العربية الشاب الثائر الودود الأنيق.. صلاح خلف..

والطالب الثائر القوي المندفع الجريء ممدوح صيدم..

وخاض الاثنان بعد ذلك مشوارا طويلا من الكفاح والتحدي. كان ممدوح فيه، أحد أربعة رجال في فتح.

وساهم كل منهما يدور فاعل في تثوير الجماهير.. ودفعها إلى ساحة القتال.. حاملة سلاحها.. مندفعة إلى خنادق الثورة والقتال.. في كل مكان.. ببسالة وروح قتالية تغذيها ثقافة النضال وتحرير فلسطين.

في خنادق غزة وبيت حانون..

وفي جبال ومغارات بيت فوريك..

وفي بيروت..

وفي عمان..

وفي الكرامة..

وفي عجلون..

والأغوار

وعلى خطوط التماس في سورية وقواعدها..

وأحببتُ الثائر المقاتل

ومن أوراق أم صبري.. نلتقط هذه السطور:

تقول ابنة فلسطين وهي واحدة من أوائل من رفعن راية النضال:

ما أن أنهيت مرحلة الدراسة الثانوية، حتى بدأت أفكر في متابعة تعليمي الجامعي، وبالفعل قدمت أوراقي لمكتب التنسيق في غزة.. وبدأت استعد للسفر.. إلى القاهرة.. وكان ذلك في مطلع الستينيات، زمن المد الناصري الجميل.

وكان سفر البنت.. وحدها.. والى القاهرة.. كان في ذلك الزمن موضع رفض واستنكار.. حتى لو كانت هذه الفتاة "بنت صيدم" كانت والدتي في الستين من عمرها، وكانت شديدة الخوف من غربتي، وفي هذه الفترة تقدم شخص من خارج نطاق العائلة لخطبتي، ووافقت أمي دون سماع وجهة نظري. ولكني رفضت وصممت على السفر والالتحاق بالجامعة.

وحين علمت الأسرة جاء عمي صبري.. من النصيرات إلى منزلنا في رفح وأصر على خطبتي لابنه "ممدوح".

لم أتردد.. ووافقت بسهولة على الزواج من ابن عمي.. رغم معرفتي بأنه كان مطاردا وممنوعا من دخول الوطن.

وقد تمت إجراءات الخطبة على عجل..

قلبي الصغير بين نارين

ولم تمضِ سوى عشرة أيام.. كانت خلالها حرب 1967 قد اندلعت، وفقدنا الاتصال به.. وفي تلك الفترة سرت شائعة قوية أن "ممدوح" قد استشهد في معركة جرت قرب قرية السموع قضاء الخليل.

وقد استقبل أهله الخبر، وصدقوه، وأقاموا له بيتا للعزاء. ورفض قلبي أن يصدق الخبر، كان إحساسي مخالفا لكل من حولي، فأصبحت أعيش في دوامة كبيرة، كان كل من حولي يتعاملون مع الأمر وكأن ممدوح قد استشهد، ولكن يقين قوي في داخلي كان يقاوم تصديق شائعة رحيله.. ويصر على أنه ما زال حيّا، ورفضت كل محاولات إنهاء الخطوبة، والزواج من شخص آخر.

كنت أنتظر على جمر من النار.. أعيش بين جنة الأمل وجحيم اليأس.

وكانت الأماني والأحلام والتوقعات تعذبني.. تمر الأيام.. كأنها شهور من الترقب والانتظار.. ومر شهر.. وثان.. وثالث..

بعد فترة ثلاثة شهور حضر أحد الفدائيين يحمل رسالتين.. الأولى لوالد ممدوح مع مبلغ من المال، والثانية لي.. وتعلن أن إشاعة موته واستشهاده كاذبة.

أربعة مقاتلين .. كان أبو صبري واحداً منهم

بُعيد هزيمة عام 1967، كانت فتح وقادتها وجنودها يواجهون العدو الصهيوني وحدهم، وكان العالم العربي في حالة ذهول وانكسار وحزن مؤلم.

كان الفلسطينيون وحدَهم هم الذين يقاتلون، وكان أبو عمار ورفاقه يتخذون من الكرامة قاعدة لهم وهي قرية أردنية تقع بين التلال، وتبعد أربعة كيلو مترات عن نهر الأردن، حيث خطوط العدو، وكانت تحتل موقعا استراتيجيا رائعا.

* * *

في يوم الاثنين 18 آذار..

طلب اللواء عامر خماش رئيس الأركان العامة للجيش العربي الأردني الزعيم عرفات، وأخبره بأن إسرائيل ستشن هجوما واسع النطاق على قواعد المقاومة على طول نهر الأردن، وأخبر عامر خماش القادة الفلسطينيين بأن الهجوم الإسرائيلي سيبدأ خلال ثلاثة أيام.

ونصح اللواء خماش القائد الفلسطيني بأن يتلافى الفدائيون أية مواجهة، وطلب منهم أن ينسحبوا إلى داخل الأراضي الأردنية لأن موازين القوى لا تقبل المقارنة.

وقال عامر خماش لأبو عمار:

- أنت رجل عسكريّ، وبحكم قانون حرب العصابات، لا يجوز أن تخوضوا معركة مواجهة مع جيش نظاميّ.

قال أبو عمار:

- إن واجبنا، هو أن نعطي الأمثولة، وأن نبرهن على أنَّ العرب أهل شجاعة وكرامة، إننا سنقوض، وسندمر أسطورة الجيش الذي لا يقهر.

لن نتراجع .. سنقاتل في الصف الأمامي

درست القيادة ظروف المعركة.

واستعدت.

وناقشت.

وقررت.

وأجمع كلّ المناضلين على أنه لا ينبغي للفدائيين أن يتراجعوا أمام العدو، وكان على أركان القيادة أن يتراجعوا إلى الخطوط الخلفية الحصينة.. وعلى أعضاء القيادة أن يغادروا الكرامة كإجراء أمنيّ، لأنهم إذا ما استشهدوا فإن الثورة ستضحي بلا قيادة.. ولكن أربعة من أبطال الثورة الفلسطينية.. أصروا على أن يشتركوا في القتال في الخطوط الأمامية مهما كانت النتائج.

وهؤلاء الأربعة هم:

- صلاح خلف.. أبو إياد.
- ممدوح صيدم.. أبو صبري.. المناضل الفذ الذي أنجبته قرية عاقر.
- فاروق القدومي.. أبو اللطف.
- وأما الرابع فكان ياسر عرفات.. أبو عمار.

وقد تم توزيع القادة الأربعة في مختلف قطاعات الكرامة، واستقر كل منهم في مغارة على خاصرة التلال المحيطة بها.

وفي 21 آذار عام 1968، اندفع العدو بخمسة عشر ألف من جنوده، وطائراته، ومروحياته على جبهة تمتد ثمانين كيلو متراً.

جنود الحق ينتصرون

وصمد الفدائيون وقاتلوا ببسالة..

كان عددهم ثلاثمائة رجل يواجهون خمسة عشر ألف جندي..

ولكنهم كانوا يتسلحون بقول الله العلي الحكيم: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله"..

انتصر.. ثلاثمائة رجل.. بقيادة عرفات، ومؤازرة القائد الوطني الشجاع عامر خماش.. وانسحب عسكر الجيش الذي لا يقهر مخلفين وراءهم أكثر من ثلاثين دبابة محترقة وأكثر من ثلاثين قتيلا حسب اعترافات الجيش الإسرائيلي نفسه!

مواكب البطولة .. ومواكب الدموع

ومن أوراق أم صبري نلتقط هذه الذكريات المعطرة بشذى الشجن والدموع والذكريات.

عام 1969، أدخل مولد نسرين البهجة والسرور والدفء في حياتنا.. وأصبح أبو صبري يعود إلى البيت في أوقات مناسبة مليئا بالشوق والحنان لرؤية طفلته الصغيرة، كنت أضع نسرين لدى الجيران وأنطلق إلى العمل الفدائي.

كنت سعيدة، بهذا الجو الكفاحي، ولم أشعر بالملل لغياب زوجي المتكرر عن المنزل، فقد كان يومي مليئا بالعمل النضالي في الساحة السوريّة.. ومن ثم توجهت إلى جامعة دمشق وسجلت في قسم التاريخ.. وما لبثت أن انفجرت أحداث أيلول عام 1970 بين المقاومة الفلسطينية والقوات الأردنية.

أثناء المعارك بدأ مرض السرطان ينتشر في جسده دون أن يعير ذلك انتباها.. أخذ يزداد تحولا، ويواجه المرض بالمسكنات. وعندما اشتد عليه الألم نقل إلى أحد المستشفيات الأردنية.

ذهبت إليه هناك، وجدته شاحب اللون، يومها وعدني بالعودة إلى سوريا من أجل متابعة العلاج، ولكنه سافر بمهمة تنظيمية إلى الكويت، ثم إلى ليبيا ليشارك في حفل تخريج دورة عسكرية.

كان نشاطه وعمله في تلك الفترة على حساب صحته، الأمر الذي أدى إلى تطور المرض، أصبح جسده ضعيفا نحيفا فاضطر لمراجعة مستشفى في لبنان وهناك قرر الأطباء إبقاءه في المستشفى، فانتقلت إلى جانبه برفقة نسرين وابني صبري الذي كان عمره ثمانية أيام فقط.

عشت مع الطفلين بمنزل مفروش في بيروت قرب المستشفى ورفض أبو صبري قرار اللجنة المركزية للحركة نقله للعلاج في الخارج حرصا منه على عدم تحميل فتح "نفقات العلاج" الإضافية.

وقال إنه مؤمن بإرادة الله وقدره.

ومن ثم طلب الأطباء نقله إلى المنزل.. بعد فشلهم في تقديم أي علاج له.

قبيل ساعات من استشهاده زاره أعضاء القيادة وعلى رأسهم أبو عمار وأبو جهاد.. وبصوت ضعيف واهن قال لهم:

- خذوا بالكم من أنفسكم.. ابقوا أيديكم على الزناد.

ثم أسلم الروح بهدوء.

تقول جميلة وهي تروي هذه اللحظات الأخيرة..

بصوت يقطر حزنا:

"كان يتوقع الاستشهاد في كل لحظة، نصبوا له الكمائن، ولكنه لم يستشهد، خاض معارك عديدة وكثيرة.. لكن السرطان تمكن منه وخطفه منا. وما زلت حتى الآن اشعر بكل تلك الدقائق والثواني التي عشت فيها مع الإنسان المقاتل، الوطني الغيور، لم نعش سوى ثلاث سنوات.. أنعم الله علينا بابنتي نسرين وولدي صبري.. وهما الآن كل حياتي.

ممدوح صيدم .. هوية ثائر حقيقي

ممدوح صيدم، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، ونائب القائد العام لقوات العاصفة للثورة الفلسطينية، ولد في قرية عاقر قضاء الرملة عام 1939، وفيها أتم دراسته الابتدائية، ليتابع دراسة الإعدادية والثانوية في مخيمات اللجوء. حصل على شهادة الليسانس في الجغرافيا من كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، سنة 1963.

شارك رفاقه في تأسيس العمل العسكريّ، وساهم في الإعداد لانطلاقة حركة فتح سنة 1965.

عمل في الجزائر فور تخرجه مدرسا، ليترأس لاحقا البعثة الثقافية الفلسطينية في مكتب فلسطين في العاصمة الجزائرية.

التحق بكلية "شرشال" العسكرية الجزائرية، وأتم تدريبه العسكري فيها.. ثم أكمل دراسته العسكرية العليا في كلية "ناناكين" في جمهورية الصين الشعبية. أسندت إليه عقب نكسة حزيران عام 1967، قيادة منطقة نابلس، فعبر حدود الوطن المحتل، وشارك في معارك كثيرة ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي من أشهرها معركة بيت فوريك يوم 1967/12/7 والتي تكبد فيها الاحتلال خسائر كبرى.

كما شارك في قيادة العمل العسكري في معركة الكرامة يوم 1968/3/12.

اختير نائبا للقائد العام لقوات العاصفة لشؤون العمليات، فأوكلت إليه قيادة قوات الثورة الفلسطينية في الأردن أثناء معارك أيلول عام 1970.

توفي في 1971/7/24، وهو في ريعان شبابه "إذ لم يتجاوز من العمر 32 عاما، ليكون أصغر شهداء اللجنة المركزية سنا.. وقد وري جثمانه الثرى في مقبرة الشهداء في مخيم اليرموك بدمشق. أطلق عليه رفاقه لقب "عملاق العاصفة" تقديرا لجديته والتزامه.

جميلة صيدم .. أوراق ثائرة حقيقية

ولدت في قرية عاقر قضاء الرملة عام 1947، أي قبل ضياع فلسطين وحدوث النكبة في عام 1948، كانت الابنة الثانية لعائلة مكونة من الأب "أحمد" والأم فاطمة وأربعة أبناء هم محمد ومصطفى ونجية وجميلة.

بدأت عيناها تتعرف على الحياة في مخيم للاجئين أقيم على عجل في منطقة رفح، على حدود صحراء سيناء المصرية حيث سكن الأب مع عائلته الصغيرة الفقيرة، التي لا تملك سوى خيمة صغيرة. كانت الأسرة تعيش وسط خليط من العائلات المصرية والبدوية.

بعد شهور قليلة انتقل الوالد مع عائلته إلى سكن صغير في عزبة يملكها شخص ميسور الحال وتولى والدي حراسة المكان. أما والدتي فقد حرصت على العمل كخياطة ملابس لنساء المنطقة.

المدرسة .. والتعليم ملاذ وهدف

وقد ذهبت جميلة الصغيرة إلى مدرسة رفح وهي في الخامسة من عمرها.. وكانت تعبر في طريقها إلى المدرسة طريقا صعبا.. مخترقة تلالا رملية ناعمة تعوق حركتها، وتجعل السير عليها أمرا صعبا خاصة لطفلة

صغيرة لم تتجاوز الخامسة. في المدرسة.. بدأت شخصية جميلة تتفتح.. وأخذت مداركها وفهمها وأسلوبها يدل على شخصية قوية.

لم تكن متفوقة في الدراسة..

ولكن حضورها وشخصيتها بدأت تتنامى.

وقد ثابرت على الذهاب إلى المدرسة، رغم حرارة الصيف اللاهبة وبرودة الشتاء القارسة.

تقول أم صبري.. في معرض ذكرياتها عن تلك الأيام الخوالي: "كان حافز التعليم في أواسط اللاجئين يتزايد، وكانوا يرسلون أبناءهم وبناتهم إلى المدارس رغم صعوبة وقسوة أوضاعهم، ربما أرادوا تعويض أنفسهم عما لحق بهم من أذى وحرمان.

وتواصل أم صبري سرد ذكرياتها:

استمرت العائلة في حياتها على نفس المساق إلى أن شعر أبي بصعوبة الحياة في تلك المنطقة البعيدة عن تجمعات اللاجئين، فاشترى قطعة أرض صغيرة عام 1953 وبنى عليها منزلا متواضعا.. انتقلنا للسكن فيه. وبينما واصلتُ مساعدة أمي في حياكة ملابس اللاجئين. رزق أبي، وأخي الكبير بعمل في مقر القوات الدولية التي وصلت القطاع اثر عدوان عام 1956، الأمر الذي وفر للعائلة مبلغا ماليا متواضعا ساعدها في إعادة تصميم بناء البيت بشكل أفضل.

أنا وأمي وخيوط القدر

طالبتني أمي مبكرا بان أتحمل المسؤولية وأنا أقوم بمساعدتها في أعمال الخياطة، وإحضار المواد اللازمة لها، ومتابعة أمور العمل مع بعض النساء اللواتي يحضرن الملابس إلى المنزل.

تحملت المسؤولية صغيرة..

وبدأت الحياة تقسو بالتدريج، بعد زواج أختي الكبيرة في مطلع الخمسينيات، لكن شخصيتي تبلورت أكثر.. فالمحن تخلق الإنسان وتعيد صياغته وصقله وتقوي من عزيمته.. أصبحت أكثر إحساسا بالمسؤولية الملقاة على عاتقي تجاه أسرتي.

وغاب ربان السفينة

توفي والدي عام 1959 أثر إصابته بجلطة دماغية أثناء عمله، فتحملت الأم عبء المسؤولية، وأصبحت هي الأم والأب والأخ الكبير.

ترك غياب والدي فراغا كبيرا في حياتي، ورغم أني كنت يومها في الثانية عشرة من عمري إلا أن شعوري بالمسؤولية تجاه الأسرة ازداد، وأصبحت أكثر قربا من أمي التي ظلت تعيش على ذكراه سنوات طويلة.

لم يقطع غيابه المفاجئ طريق متابعتي للدراسة، وبدأت ألمس محبة المدرسات لي.. ربما لنشاطي وحيويتي، وامتلاكي القدرة على المناقشة، وإبداء الرأي الأمر الذي أهلني لان أكون دائما "عريفة صفي" كنت أعود من المدرسة إلى المنزل لأساعد أمي في أعمال الخياطة. وعندما يهبط الليل، كنت أدرس مع إخوتي مستعينين بالضوء المنبعث من "لمبة الكاز" التي كانت تنير خيام وأكواخ اللاجئين.

في المرحلة الثانوية ازداد تفوقي.. ربما لازدياد شعوري بتحمل المسؤولية.. وبحصولي على الثانوية العامة كان الالتحاق بالجامعة هدفي.. غير أن القدر.. كان يخطط لي كي التقي بحبي العظيم.. ابن عمي.. وقائدي.. ومرشدي.. ووالد أبنائي.. وتلك هي القصة الحقيقية.. قصة حياتي.

ملحمة بطولة وفداء

قصة حياة المناضل ممدوح صيدم، وابنة عمه "جميلة" ملحمة بطولة وحب وفداء، يلعب فيها القدر دوره فيفرض أحداثا درامية عنيفة.. فيها القهر واللوعة والفراق والأمل والأمومة، والرحمة والسفر والاغتراب والمطاردة والعنف وفيها عطر الحب، وشذى الإخلاص، وعبير الوفاء.. وفيها كذلك.. البطولة والشجاعة والفداء.. والانتصارات.. والنشوة.. إنها واحدة من أعظم قصص الثورة الفلسطينية.. كأنها أسطورة يونانية معاصرة.. بكل ما فيها من الخيال والقدرية والتحدي والسخرية والألم.. والشجن والدموع.

قصة البطل الشجاع الفارس.. الذي يتحدى الموت.. ويخوض المعارك.. ببسالة وفروسية وقوة ونبل.. ومن ثم.. يصحب ابنة عمه.. رفيقة دربه.. إلى ميادين القتال والتحدي والرصاص والموت.

أرأيت أروع من ذلك..

الفارس المثقف الذي يحمل درجة جامعية، وتلقى تدريبات عسكرية مكثفة في الصين.. يأخذ ابنة عمه.. زوجته وأم ولديه "نسرين وصبري" إلى خنادق القتال والمواجهة والتحدي حيث الرصاص والنار والموت..

إنها قصة.. تشكل ملحمة وطنية فلسطينية تنبض بالشجن والدموع.. والكبرياء والانتصار والانكسار أمام القدر العنيد حيث يترجل الفارس عن صهوة جواده ويرحل وهو في الثانية والثلاثين من عمره..

ممدوح.. القوي.. الشامخ.. الصلب.. العنيد.. الجاد.. المهيب.. ينكسر أمام المرض.. يقهره السرطان ويختطفه من بين رفاقه ومن أحضان أسرته.. فيرحل.. وهو يلقى نظرة وداع أخيرة على رفاقه.. ياسر.. وصلاح.. وخليل.. إن الذين يظنون أن زمن الرومانسية قد ولى وانقضى واهمون.

إن ممدوح صيدم.. ابن قرية عاقر.. الذي عاش في حواري مخيم خمسة في مخيم النصيرات.. التقى ابنة عمه جميلة أحمد صيدم التي نشأت وترعرعت بين براثن الفقر والكفاف في مخيم رفح..

وتدور الأيام..

وتلتقي روحان.. كريمتان على مبدأ النضال والثورة .. يخوضان معركة وجود الشعب الفلسطيني.. ويتقاسمان مرارة الحياة وقسوتها.. كما يتقاسمان رحيق الانتصار في كل معركة.. تخوضها فتح.. ويرقع فيها ممدوح لواء البطولة والشجاعة والفداء.. في الأغوار وفي سورية والأردن وبيت فوريك.. وفي معركة العطعوط.

أي قلب ذلك الذي تحمله جميلة بين جوانحها.. وهي تتلقى خبر موته.. فلا يطاوعها قلبها وتظل تنتظره.. ليعود.. فإذا هو بجانبها في أحد شوارع عمان..

أي مشاعر وأحاسيس.. طافت بجوانح الفارس.. البطل.. وهو يقاتل بعيدا عن زوجته وطفلته نسرين.. يواجه الموت.. والحديد والنار في جبال بيت فوريك.. مع أبو عمار.. يقاتلان.. بشراسة.. وقوة.. وإصرار على النصر.. يقاتلان عساكر ديان.. وينتصران.. ثم ينسحبان.. أي مشاعر وأي عواطف وأي انفعالات عبرت خيال وإحساس ممدوح وهو يعبر النهر للقاء ابنته وزوجته.. فإذا داهمه المرض ظل يخوض الحياة وعين على أسرته.. زوجته وولديه.. وعين على جنوده الذين يقاتلون ويفتقدون القائد الشجاع.

لحظات الوداع الأخيرة

كان مساء يوم السبت الموافق 2011/7/30 مساء حزينا مثقلا بالدموع والأشجان حيث فقد الشعب الفلسطيني رائدة نسائية مناضلة كانت من أوائل من حملن علم الثورة وشاركن في المسيرة النضالية بشجاعة وجرأة وثبات، وكان ذلك في مطلع سنوات الستينيات.

كانت الساحة النضالية تكاد تكون حكرا على الرجال، ولم نجد في تاريخ الثورة من النساء المقاتلات غير رجاء عماشي وانتصار الوزير وجميلة صيدم وعدد قليل جدا من النساء اللواتي ناضلن في سبيل انتصار الشعب الفلسطيني.

والمناضلة أم صبري كانت عضوا في المجلس التشريعي، كما كانت عضو الأمانة العامة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، وعضو المجلس الثوري لحركة فتح، ومن المؤسسات للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، وهي أول سيدة تدخل المجلس التشريعي الفلسطيني. وكانت عضوا في اللجنة المركزية لحركة فتح .

كتبت د. فيحاء قاسم عبد الهادي في رحيل المناضلة جميلة صيدم تقول:

"يقترن اسمها لديَّ بالتضحية ونكران الذات، على الصعيدين، الخاص والعام، حيث الإخلاص للعائلة وللوطن في آن. عرفتها مناضلة صلبة، ذات شخصية قوية. حافظت على بوصلتها، ومواقفها المبدئية، رغم تعارض هذه المواقف أحياناً مع مواقف تنظيمها السياسي: "حركة التحرير الوطني الفلسطيني/فتح".

من عاقر إلى رفح إلى سورية إلى تونس إلى غزة ورام الله، رحلة طويلة وشاقة، تلك الرحلة التي بدأت بتهجير الرائدة جميلة صيدم، وانتهت بعودتها المنقوصة!

الوالدة المناضلة في عيون فلذة كبدها

وقد كتب د. صبري صيدم معلقا على الفيلم التسجيلي الذي تناول مسيرة البطلين جميلة وممدوح صيدم:

لم يستطع الجمهور أن يتمالك مشاعره وهو يتابع تلك الأحداث الرائعة من حياة الثائرين ممدوح وجميلة، ومع التميز الذي واكب الفيلم في إبرازه لمحطات خلت ومواقف جمعت بين الكبرياء والتحدي والجبروت النابع من محبة الجماهير ودعمها للعمل الفدائي، فإن الجمهور الحاضر والشاهد الأول على مجريات الفيلم كان العنصر الأكثر تمايز' عن غيره بحضوره وتفاعله وحتى حنينه لزمن حمل معاني كثيرة، زمن نقل الشعب الفلسطيني من رماد النكبة إلى عنفوان الثورة.

لحن الوداع للأميرة الحزينة الثائرة

وفي موكب جنائزي حزين تم تشييع جثمان فقيدة الوطن في موكب يتقدمه الرئيس محمود عباس وأعضاء اللجنتين التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والمركزية لحركة فتح، وقادة الفصائل وعدد من أعضاء الحكومة والمجلس التشريعي، والمجلس الثوري لحركة فتح، وكبار القادة المدنيين والعسكريين، وحشد غفير من المواطنين.

وبعد أن عزف لحن الوداع الأخير، ووري جثمان الفقيدة الثرى في مقبرة البيرة.

عزيزتي جميلة..

فيكِ تلتقي عناصر البطولة والعصامية والروح المقاتلة..

اسمحي لي بأن ادعوكِ (الأميرة الحزينة).. فهذا هو اللقب الذي يشكل عنوانا لمسيرتك الرائعة، كنت أميرة في أخلاقك وشموخك وبطولتك ومشوارك النضالي الماراثوني الذي امتد طوال عمرك من معركة إلى معركة ومن خندق إلى خندق ومن نصر إلى نصر.

كانت مسيرتك الرائعة تتألق بفعل معطياتك الذاتية وروحك الوثابة وشخصيتك المقاتلة. فقد واصلتِ النضال والتفوق دون أن تعتمدي على أحد، وشغلتِ أرفع المناصب وأهم المراكز معتمدة على الإخلاص والمصداقية والشفافية.

عرفتك في بيروت وفي تل الزعتر وفي عمان وفي تونس وكنتِ دائما شعلة من الذكاء والنضال وكنت أُكبر فيكِ تلك الروح المقاتلة عندما كنتِ مع مي الصايغ تدربان الفتيات الفلسطينيات على فنون القتال والثورة، كانت شخصيتك الرائعة تجسد القائد المدرب الرائد الذي يبث في نفوس طلابه وطالباته كل معاني السمو والقتال والأيمان بالمبدأ.

مسيرتك الرائعة يا أميرتي الحزينة تبعث الشجن والأسى في نفسي. وتؤكد لي أن الحياة رحلة قصيرة ومشوار لا يلبث أن ينقضي، ولكنكِ كنت نموذجا لمن يجعل كل ساعات عمره حافلة بالعطاء والتحدي والمثابرة والانتصار.

إن رعايتك لصبري ونسرين ومثابرتك على تعليمهما ليصلا إلى أعلى الدرجات العلمية يسجل في صفحة إنجازاتك الوطنية والقومية لتظلي أعظم أمّ.. أعطت وطنها عصارة حياتها ورفيق عمرها وقدمت لفلسطين عقليتين علميتين نابغتين هما الدكتور صبري صيدم وشقيقته نسرين برعاية السيد الرئيس أبو عمار الذي احتضنهما بحنان الأب ومسؤولية القائد.

لقد جفت الدموع في مآقيّ منذ رحيل أحبابي الذين يشكلون حديقة غناء رائعة قوامها العبقرية والوطنية والإخلاص والأخلاق والتفوق.. واليوم نغرس في ربى هذه الحديقة الرائعة غرسا جديدا بل شجرة فيحاء بالعبقرية والنبوغ والإخلاص اسمها جميلة صيدم.

(2012/8/17)